نبض الحرب

الكتاب: نبض الحرب تراتيل الفرات / رواية
المؤلف: هناء الصلال

الطبعة الأولى: 2019
© جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

منشورات: دار سوريانا الدولية
طباعة نشر توزيع
دمشق – سورية
2247533 - 2244600
E-Mail:suryanasyr@yahoo.com
suryanasyr8@gmail.com

التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة القسم الفني: دار سوريانا الدولية

لا يسمح بطباعة هذا الكتاب أو نسخه إلا بإذن خاص ومسبق من المؤلف
All right reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted.
Without permission in writing from the Author

طبع في مطابع مؤسسة سوريانا

نبض الحرب

تراتيل الفرات

روايـة

هناء الصلال

الإهداء

إلى روح والدي ..

ذاك النور الذي مازال يضيء طريقي رغم الظلام ..

إلى والدتي قدوتي ومنارة قلبي ..

إلى شموعي الأربعة ..

آلاء .. أنور .. إيلاف .. محمد ..

إلى كل الذين افتعلوا فجوجاً في داخلي ..

في هذي الأخاديد نبت القمح ونهضت عشتار من سباتها الطويل ..

إلى أنا...

تعبت .. لكنني أخيرا وصلت .

هناء الصلال

أتبعك أيها السراب، وأعلم أنك لن تروي عطشي، لأنك يا سرابي الأمل الذي لن يعاش. ارحم ضعفي في سكون الليل، واحمل عني عبء الحنين، لم أختر قدري، لكنه هو اختارني، بتلك المقاييس نشبع غرور المجتمع وأعرافه، وأعراف تضعك أمام المستحيل الذي بتر أطراف التمني بلا تردد.

أسميك قدري، وجعي الذي يسكن أضلعي، يشبه سكرات الرحيل الأبدي، بل وأوجع، لكنني يا وجعي .. أنا لست أنا في كل مواقف الحياة، أنا نصفان مشوهان، الأول يحبك من دون وعي، مجنون بك، والآخر يكرهك حد الموت فيك، تصور حجم الصراعات في أعماقي الهشة، والنصفان لا يمتلكان أي وسيلة دفاعية ضد حبك، اختارتك حواسي الخمس، بل الست والسبع، فحدسي بك مطلق بكل ما يتعلق بك، فأنا يا وجعي أراك وأنت في عالمك، أتجسس عليك وأكتشف أسرارك وأجلس إليك أحدثك، عن الرحيل والحرب، عن الخيبات التي تجرعتها كعلقم حيث زاد بها وجعي...
وماذا تقول لمن كوى قلبه العطش، غير اتبع ذاك السراب؟.
الأمل هو الخيط العنكبوتي الذي يربطني بزاوية الحياة، هي زاوية لأننا لو عشنا الحياة من جميع جوانبها لما تمنينا فراقها، وأنا يا سرابي راضية، ليس الرضا بأن أعيش من دونك، ولكن الرضا لأنك تعيش بداخلي وتتغذى على عواطفي وكلي راضية، تسرق

النوم من جفني وأظل راضية، أتوه باسمك حيث تنطقه ألسنة اللاشعور لأي سائل سهواً فأبتسم راضية، وفكري مشغول بك طوال الوقت، وبعد هذا وذاك ... أنا أتبعك أيها السراب...

تبتل بذكرك وسادتي وتغرق، وأبكي راضية، أشحذ أنفاسي بصدر معتل يكاد يتفتت وأظل راضية. أعيش سجينة داخل ذكراك وأتذكر راضية. ماذا بعد كل هذا الرضا ؟غير أنني مؤمنة بك. بعد كل تسبيحة أدعو لك وأنطق اسمك وأغلق باب قلبي عليك كي لا تتسرب عندما تذيب حرائقي كل معاقلك بداخلي، ما أوجعني بك ... ما أوجعني من دونك...

هل تعلم كم عانيت وأنا أروض لغتي كي أظل أكتبك، فأنت أبجديتي التي لا يفهمها غيري ولا تحلو إلا بنبضك..

أنت كل اللغات في قاموس عشقي لك، ومهما تعددت لغاتي تظل ذاك النص الثابت مهما حاولت تحريف المعاني عنوة تبقى ماثلة، نصي المحكوم علي أن أكتبه، في كل لحظة مع ترتيل قلبي له.

وأظل أعيش في معتقل حبي وكرهي لك، أقاوم كل أنظمة الاستبداد، أبتلع صراخي لأعود زلزالاً يحطم كل القيود في ذاك العمق الداكن، واحتضن كفني كمحاولة لتهميش الحياة، فالحياة فكرة يلفظها رحم المعاناة، لابد أن نعاني لنصل إلى ذواتنا المفقودة في متاهات الصراع بين الإرادة ومآرب الذات، أنا لست فيلسوفة يا وجعي، لكن الحياة مدرسة وعلمتنا التجارب دروساً لن تنسى، حولتنا إلى محابر وأقلام، تعلمت كيف أكتب هذه التجارب التي خرجت من رحم المعاناة.

هل تعلم أنا الساكنة الهاربة من ذاكرتي ومن ذكراك...
كلما حاولت أن أبتعد أجدني أسكنك أكثر.
"لو سألتني كم مرة جئت في بالي، سأقول مرة، لأنك أتيت ولم تغادر... ([1])
تلك عبارة وكأنها مكتوبة بحروف من ذهب، على جدران قلب عاشق زاهد، ينام في محراب الهوى، يتعبد حتى يستجيب الله نداءات قلبه المتعب.
راهنت نفسي على نسيانك، ولم أربح ذاك الرهان، بل إن الرهان شامت ومنتصر بعد كل هزيمة أمامه، اعذرني أني فقط أحاول. لا تعبأ بخيانتي إذ إنني حاولت، وإن لم تسامح فأنا لن أسامح نفسي مهما كفَرت عن النسيان بذكرك، يا كل ذاكرتي، يا كل ما أذكر، وما تذكرت...
تلك المدينة مزروعة بجثث من غادرنا ومروية بدماء كل من نحب، هل تعتقد أنها ستثمر تلك الأرواح نفسها؟ وهل بمقدورنا أن نحصد أرواحاً كانت لنا روحاَ وشعاعاً من نور ؟ لا أعتقد . فقانون الحرب يقول في معادلته : احصد أرواحاً أكثر وسأعطي لكم وجعاً أكبر . وأنا موجوعة جداً بهذا الفقد، ملامحك تمسح ملامح الخراب في نبض الحرب، نبض يفتت معالم الحياة، وأنت يا نبض قلبي مازلت تمنحني قسطاً من حياة، قسطاً من أمل، قسطاً من نجاة، الرحيل بيننا قرين الموت، من لم يمت هو راحل إلى أجل غير مسمى، ونحن في عمقنا حل الرحيل واستوطن، وكأن مشاعرنا اعتادت كل ألوان العذاب وكل أشكال الفقد...

وهأنا أعود إليك كطفل يتيم فقد الإحساس بالأشياء.
يا مدينتي ... يا مدينة الحب والبارود والنار، نخرج من سجن أرواحنا من دون إثبات براءتنا من تهمة الحب، من يعشق مدينة مثلك كيف له أن يتوب من هذا الذنب ؟ ... جميلة بكل ما فيكِ.
ما تعثّرت ارتباكاً يا حصى
أو جنوحاً لاختصار الألف ميل
ليس ذنبي أن دربي ما استوى
كان ذنبي ثوب أحلامي طويل ([2])

ثوب أحلامي أنتِ، في قلبي كنت اختصار لكل مدن العالم، اختصار لكل حب في قلبي، لكل عاطفة تسكنني، أهل للجوار، وطمأنينة للنفس، عاشقة تغفر غياب المحُب، لا تعاتب طول الغياب ولا عناء الشوق، ولا ما كابدت من جراح، ترمم أوجاعها بيد طيبة كريمة ومسامحة، تربت على كتفي الهزل لأنهض بها، لأعانقها بصمت، وبكثير من الدمع...
وبقيت دهشتي تنتظر شذرات فجر أفل، تصافح أصابع الريح بحذر.

المؤلفة

---

1. جلال الدين الرومي .
2 . جلال الدين الرومي.

(1)

كنت أفعل مثل كل صباح أكون به في مكتبتي، حيث أتأمل بعض المقررات لمادة علم النفس التربوي من أجل وضع أسئلة الامتحان الفصلي الأول، وبينما كنتُ أقلب وريقات إحدى المحاضرات، تهادى إلى مسامعي هتافات وأصوات أغانٍ. تنهدت، وأدركت لحظتها أنه حانت ساعة الانقلاب الطلابي وأن الضيق قد تسلل إلى نفسي من دون موعد مسبق، غادرتُ بفكري لأيام الجامعة حيث كنا ننعم بالهدوء التام، وكانت الحياة مقبلة علينا بأطياف رائعة. كانت أبلغ همومنا ضيق الوقت عند اقتراب الامتحان، مناقشة دكتور المادة المتعجرف الذي لا يمنح أحدنا علامة إلا بشق الأنفس، تحضير نشاطات للمواد العملية، تذكرت جلساتنا في مقهى الجامعة وصديقاتي اللواتي أفتقدهن، الحماس والتنافس البريء بيننا، عودتنا إلى منازلنا وقت الظهيرة، ونحن نستقل حافلة النقل الداخلي، نقاشاتنا التي تطول حتى تنزلُ كل واحدة منا في موقف، بساطة الحياة، وبراءة الأماني...

تعالت الأصوات، اقتربت من النافذة لألقي نظرة على بهو الجامعة حيث يتجمهر الطلبة ويمارسون طقوسهم الخاصة، تلك الطقوس التي قيدت حريتي، ووضعت كمامة على فمي ... أدرك وأحترم إيمانهم بقضية ما يرنون إليها، فالبحث عن التجديد ومحاولة دفع عجلة الحياة باتجاه أفضل، أمر مطلوب ومقبول لكن كنتُ أتقبله لو كان متدرجاً وليس فورة أو طفرة تقلب الموازين رأساً على عقب أحترم معتقد الآخر وهدفه ومطالبه كفرد في مجتمع كما له؛

عليه فيه ... أما الشيء الذي لم أدركه تلك الحركات التي يومؤون بها.

لم أجد لها تفسيراً، فهم يضعون أيديهم على أكتاف بعضهم بعضاً ويشكلون حلقة مغلقة ويقفزون على التوالي، والفتيات منهن داخل الحلقة يطلقن العنان لحناجرهن فتصدح الزغاريد ويصورون هذا المشهد بكاميرات الجوال، ومنهن خارج هذه الحلقة تتوارى عن الكاميرات وتطلق الزغاريد بالحماس نفسه. أرهقني المشهد، فتت أشياء كثيرة في داخلي لا علم لي بها، ربما هو الخوف الذي ولد مع تلك اللحظات المجنونة، نعم مجنونة لا أرى ما يحدث إلا ضرباً من جنون.

قرع الباب قطع سلسلة أفكاري، حيث جاءني صوت مصطفى عامل البوفيه في الكلية على عجل والارتباك بادٍ عليه.

-أستاذة سعاد الوضع لا يبشّر بالخير، لا بدّ أن تغادري، أخشى من مداهمة المبنى وأنت هنا.

أيقظني من شرودي وأعادني إلى الواقع المر.

- معك حق سأغادر ...شكراً لك.

-أنا أعتذر لتدخلي لكن تدركين الوضع خيراً مني.

-أجل .. أجل، أدرك هذا الوضع، لا عليك اهتم بنفسك .

أسرعت باتجاه مكتبي ألملم أوراقي المبعثرة وأضعها في مصنف، أحملها على عجل، أنتشل حقيبتي وأغادر مسرعة. تجاوزت السلم بلحظات حتى أدركت الباب الخارجي، وأنا أسير على الرصيف المحاذي للجامعة وصوت الهتافات مازال يصدح في فضاءات ذاك المساء. وبينما هم على تلك الحال توقفت سيارات شرطة الأمن

الداخلي وسادت الفوضى وعم الهلع بين الطلبة، ولكن كل شيء محسوب له حساب...

وأنا أمضي في طريقي لموقف الحافلة صرخ فيَّ أحد المتظاهرين،وقد قفز من فوق سياج حائط الحرم الجامعي:

- أسرعي، وإلا أمسكوا بك...

لم يسرِ الهلع إلى قلبي، كنت أسير باطمئنان وتراود إلى فكري ذاك المثل الشعبي الذي تردده والدتي باستمرار : "الذي لا يأكل العجين لا يخشى من الانتفاخ" .

ولمَ الخوف ؟ . فأنا لم أرتكب ذنباً، وأعرف أن عميد الكلية قد أمن على طلابه، فهو شديد الحرص في الحفاظ على جمهوره للوصول لغاياته مثل كل مرة.

يطلب من حارس المبنى فتح الأبواب الخلفية التي تؤدي إلى الحارة الخلفية للمبنى الذي تليه أبنية أخرى متراصة وشوارع ضيقة لينفتح المجال أمام المتظاهرين للهروب إليها والاختباء بين أزقتها أو طرق الأبواب على أهالي الحي بحجة أنم يطلبون الأمان، والشرطة تطاردهم.

كل شيء كان منظماً، وكل شيء يحدث كما كان مخططاً له من دون أخطاء، وهكذا ينجحون في كل مرة ويهربون من نيل العقاب، أما بالنسبة للفتيات كنّ لا يبرحنّ المكان لأنهنّ على يقين أن الشرطة تتجنب اعتقال أي فتاة، فهم يعلمون ضمناً أن هذا الفعل يثير حفيظة مجتمع عشائري، وما زاد تغاضيهم بعض الطلبة إلا تمرداً. شيء رهيب، لم يرق لي بتاتاً.

أصل موقف الحافلة أدلف إليها باستياء، أجلس على مقعد بجوار رجل مسن أتأمل في وجهه الذي أقرأُ فيه الماضي وأتكهن بالمستقبل، وأسأل الله تعالى أن يتلطف بنا...

إلى أين يسير هؤلاء المقامرون ؟! إلى أي جهنم سيودون بنا، أي مصير سنلقاه في الأيام القادمة، أنظر وأرقب بعين عاشق سيرحل عن تلك المباني والأماكن التي ألفها ناظري وحفظتها ذاكرتي، يشتعل بقلبي الحنين وكأن حدسي يحدثني أني مغادرة لا محال.

مازالت التفاهات تسيطر على الحيز الأكبر من شبه الحياة .. ومازلنا نغرق في معتكر بحيراتنا الروحية .. ومازال أشباه البشر يستلون من رماح الروح ليحكموا غرزها في قلوبنا ..

ومازال كلانا بين قيد وشرط .. هلا عبرت أنهار الذهب كي أعبر .. ومضيت أنتَ وبقيت أنا هنا .. أخشى وشاية الصباح، ووحشة السديم. تلك البراري المعشوشبة ما عادت بيتنا .. شموسها تلسع وجنتي، وما أنا سوى تلك الغريقة التي لا تعرف سوى هذه الشواطئ المكلومة بالرحيل. ووجدتني أردد : يا شآم، إن جراحي لا ضفاف لها، فامسح عن جبيني الحزن والتعبا . ([3])

---

3. كلمات للشاعر الكبير نزار قباني

(2)

أريد ترتيب القصائد بما يليق بحزننا المزمن ..

ما أوجعني بالشوق.

لا تترك للأمكنة شهوة الموت بصمت . سرابها لا يمنحني فرصة الهروب إلى النسيان .أتأمل في مرايا الصمت التي تشنق أعناق الكلمات .. بثِ فينّا روح العناق، ولنحلق على جناح رياح متمردة، بحكايانا المشبعة بالحنين، فالحياة لا تقاس بعمر الشقاء، ولحظة سعادة تساوي دهراً من شقاء.

كنا....

كنّا نحتطب لأحلامنا فأضرموا بها النار .. يا نار كوني برداً وسلاماً على أحلام لم تولد بعد ..يكفي أن قلوبنا في فلك الغياب تحترق، وشتاء غربتنا نخر العظام .. تخوننا أقدارنا. دروبنا العتيقة، وتلك الوجوه الباسمة في ألبوم صور.. ضوء الفجر حين كنا مجموعة إنسان في روح واحدة .. حين كنّا نلعب مع الأطفال على مراجيح الأمنيات. حين كنّا نحن لا أكثر قبل أن تدنس أرواحنا رمادية الحياة ..

اكتبيني علّي أخلد في صفائح قلبكِ .. ما أنا سوى عابر سبيل انحنى ليرتشف من فراتِ عتيق فثمل حدّ الغرق، ليظل ذاك الحزن يخالج روحي كلّما هبت رياح الشرق.. شفاه متقرحة صحرها الظمأعلى الرغم أن الماء من روحي تدفق .

أنتَ في دمشق...

عانق عبق التاريخ قبل أن تدخل .. اسرق ما شئت من اللحظات التي لن تجود عليك الأيام بمثلها..

الشوارع المكتظة بالعابرين. أسوار التاريخ .. الوافدين إلى الحاضر كقلبها المزدحم بمحبة الجميع .. النابض بكل أطياف الحياة.. الراسخ كقاسيون بل وأكثر.

الأرصفة تحملك بحنان أبوي . تهمس لكَ .تحنو على جراحك النازفة .تبدد وحشة الأمس .تؤكد أن للغدِ فجراً أجمل . بردى يعبرُ حنايا صدرك. يروي عطشكَ المزمن. تتلاشى الحدود والجهات. الطرق إلى السماء مفتوحة . يحلق قلبك كحمام بيوت الله لا يلوي على شيء غير الصلاة..

حبيبتي يا شآم كم أنا مشتاق..

فترد باستحياء..

كم أنا مشتاقة..

عندما أسير بمحاذاة بردى تتلاشى الأبنية ويحل الربيع ليغطي تلك المساحات الواسعة، تطوق الأشجار ضفافه وتملأ الأرجاء أغاريد الطيور وأحلق بجناحي فراشة أعانق قاسيون وأجلس على أعلى نقطة فيه أراقب جنة الله تعالى في الأرض، أتنفس عبق الياسمين، أتنفس الحرية والأمان أستشعر أسباب الوجود.

لا تعاتبني ما بيدي، لا تنتقد عجزي، أنتَ قويّ، وأنا أستمد منكَ رباطة جأشي، وأنتَ منيع.. أنتَ شامخ، أنت رسول وأنت نبي، وأنا إليك أرنو. أقبل ثراك، وأصرخ بأعلى صوتي، موطني، يا ساكني ومَسكني...

في دمشق..

سوق الحميدية والجامع الأموي قبلتك حكماً . في دمشق لن ترتاح إذا لم تلقِ السلام على التاريخ وتتجول بين هذا الإرث العريق،

تدخل إلى بكداش لأكل البوظة اليدوية اللذيذة بمتعة تسري في نفسك وتخرج إلى سوق الحميدية للتبضع وسماع عبارات الباعة : "تفضلي مدام في الداخل تشكيلة واسعة ".

أتنقل بين تلك الدكاكين المتراصة التي تؤكد التحام هذه الأمة وحبها لبعضها بعضاً ووحدتها رغم ما يدعون بوجوده من طائفية ونزاع وخلافات مزعومة ...

في دمشق لن تميز بين الناس لشدة طيبتهم، تحسبهم كلهم أبناء طائفتك، والتعامل معهم تلقائي بسيط، مريح من دون قيود، وأجمل كلمة تقال وتسمعها كثيراً: "خليها علينا مدام" .

ما أجمل تلك العبارة ..

دليل على كرم هذه الأمة، أستقل تاكسي الأجرة، شعور جميل عندما يسألني، كأن دمكِ جزراوية.. ؟

أبتسم، وفي داخلي شيء يذوب وكأنه الجليد الذي تراكم بفعل ما عانيته في مدينتي.

مدينتي المغتصبة التي لم تعد مدينتي مذ غادرتها، كأن الأمل بالعودة قُتل في داخلي لهول ما رأيت...

- سيدتي، كيف الأحوال عندكم ؟

يعيدني عنوة من أرض قلبي إلى وطن قلبي فأنتبه إليه.

- الحمد لله بخير.

لا أريد الخوض في أحاديث أنا في غنى عنها، يقال إن "للحيطان آذان" تسمع بها والحيطة والحذر واجب في وقتنا الحالي فقد اختلطت الأوراق، وضاع الصالح بالطالح، ولا مساومة في قناعتي على عشق الوطن ..

أكتفي برد مختصر درءاً لأي شبهة، أناوله الأجرة وأسرع باتجاه البقالة. أحتاج بعض الأغراض من عند العم أبي محمود ذاك الرجل الطيب صاحب الوجه السموح.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام أهلاً بالأستاذة.

- طمني كيف الصحة؟.

- الحمد لله ... من الله بألف خير.

- الحمد لله دوماً يا بنيّتي.

- أريد جبنة سائلة لوليد ومعها الأكلات التي يحبها، تعلم إذا دخلت من دونها ماذا يحدث.

يبتسم وهو يجمع الأكلات التي يعلم تماماً رغبة وليد بها ويضعها في الكيس وهو يدعو لي وله.

حفظه الله لكَ، أعانكَ الله على هذا العبء.

أشعر بعاطفة الأبوة تجذبني نحوه وبارتياح غريب لسماع كلماته، أشكره بامتنان من عمق قلبي وأصعد السلم باتجاه المنزل.

علاقتي بوليد في كل يوم تزداد عمقاً، هو أنفاسي التي من دونها أفقد معنى الحياة، هو امتدادي وجذوري، وإرضاء حاجتي للأمومة منحته كل ما أوتيت من عاطفة، كل اهتمام، كل وقت يستحقه، أراه طفلي وونيسي ورجلي الصغير. في ظل هذه الظروف اضطررت للوفود إلى دمشق بعد سقوط الرقة بين فكي داعش، أجبرتني الحياة على أن أحمل عبئاً جديداً فوق حمولتي السابقة وما باليد من حيلة، لا بدّ أن نصمد أمام قسوة أقدارنا، هكذا هي الحياة.

في ذلك البيت الصغير، أراه صغيراً جداً بالمقارنة ببيتي في الرقة، فهو يتكون من غرفتين صغيرتين أتقاسمهما مع صديقة عمري رهام. رهام أكثر من أخت وأكثر من صديقة، شاءت الأقدار أن تجمعنا في أرض الياسمين معاً بعد أن سلبت منا الحياة أغلى ما نملك وبالنسبة لها أغلى ما تملك...

رهام.. كانت مهندسة ناجحة متألقة في عملها جميلة تنبض بالحياة ..كريمة الخُلق .. طيبة .. تحمل السلم بالعرض في زمن سقوط المبادئ والثوابت .. عصامية في مدينة تضطهد الناجحات .. زنبقة فراتية لا تنحني أمام قوة الرياح .. مكلومة .. يتدفق سيل جراحها كما الفرات .

حال دخولي إلى المنزل قفز وليد ليحتضنّي بحرارة وكأنه كان يفتقد الأمان وحصل عليه،

ـ ماما لماذا تأخرتِ ؟...

ـ يا حياتي .. أجبرتني بعض الأشغال للتأخر.

لم أكن أجرؤ أخباره أن خيالي شرد في دمشق وانطلقت أكتشف أسرار هذه المدينة الساكنة أعماقي وحدي ومن دونه.

ـ ماما أمّا وعدتني أن نذهب معاً إلى الجامع الأموي ؟

ـ نعم وعدتك، ومازلتُ عند وعدي.

ـ متى نذهب إذا ؟.

ـ في أقرب فرصة إن شاء الله، خذ هذه الأكلات التي تحبها واجلس إلى الطاولة وتعلم.

أشير إليه بسبابتي فيبتسم، وتبتسم كل جوارحي معه.

ـ احفظ الدرس، سأغسل يديّ وأنظف أسناني بعد الطعام.

- يا حياتي...
أتجه نحو غرفة رهام أتفقدها على الرغم من أنني أعلم أن الأدوية التي تتناولها تجعلها في حالة نوم شبه دائم، أطرق الباب بهدوء.
- رهام حبيبتي...
ألقي نظرة على الغرفة .أراها مستغرقة في نومها، ومن ثم أغلق الباب من جديد . أعود إلى غرفتي وأستلقي على السرير لأسترجع شريط الذكريات.

لم تترك لي الحياة أي فرصة للفرح، فبعد حصولي على الشهادة الجامعية التي كانت فرحتي بها لا توصف، ولا تضاهيها فرحة، عزمت على استكمال الدراسات العليا، فحضرت رسالة الماجستير والتي حصلت عليها في حلب، ما إن استقرت الأرض تحت قدميّ حتى قامت الدنيا ولم تقعد، وعدنا من جديد نقطب جراحنا النازفة ...

كانت جلسات السمر بين الأهل والأحباب هي من أجمل وأعمق الأسرار التي تربطنا بمدينتنا الجميلة والحبيبة، تلك السمراء التي تفانت في البذل والعطاء وتفانينا بالنكران، لم ندرك قيمتها غالباً ما ندرك قيمة الأشياء بعد خسارتها، لكنها ليست كأي شيء، هي كل شيء وأجمل وأعمق شيء في نفوسنا، أن تكون متجذراً في أرضك، شعور يمنحك حق الموت فيها ومن أجلها، لكننا تهاونّا، فهانت علينا وهنّا من دونها .. لماذا لم نتمسك بها حتى الموت؟ و"الإسلام لا يعارض العلم الصحيح، ولا الفن النافع، ولا الحضارة الخيرة .إنه دين سهل رحب مرن. ([4])

---

4 - كلمات للشيخ الطهطاوي

(3)

إبان استقراري في دمشق كان جلّ همي الاهتمام بطفلي وتوفير فرص تعليم جيدة له بعد ما آل له وضع التعليم في مدينتنا المنكوبة حيث الإرهابيون حاربوا التعليم بكافة أشكاله وحولوا المدارس لمقرات وثكنات لمسلحيهم، وعاد التعليم حكراً على الجوامع، ومع تلك الدروس التي يتلقاها الأطفال في الدين، هناك نصيب لدروس الجهاد، ومن هنا يتم زرع البذرة، بذرة الإرهاب، لم ترق لي هذه الفكرة بإرسال أي طفل إلى الجامع في ظل تلك الظروف، فالأميّ أرحم من الإرهابي بآلاف المرات، حاولوا بكل ما أوتوا من جهل وعنف وإرهاب محو معالم ديننا السمح، فالإسلام ما قام على النحر والذبح والبطش، الإسلام دعا إلى العلم وأكرم العلماء، الإسلام جعل صورة الرسل والأنبياء وأفعالهم قدوة لنا، زرع محبتهم في نفوسنا، الإسلام قام على الخلق، الركيزة الأساسية، فالله تعالى عندما اصطفى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قال :"إنك لعلى خلق عظيم " .

عظّم أخلاق النبي من بعد عظمته، وهم جاؤوا لإثبات أن المسلم بلا خُلق بما يسوغون له بتصرفاتهم الفجة وألفاظهم النابية وغطرستهم وعدم احترامهم للناس.

امرأة تفرّ من بين فكي الموت بعد صراع طويل معه، تصل لبر الأمان مسهدة، متعبة لا تطمح بأكثر من لحظات نوم هادئ غير متقطع، فؤادها شبه فارغ، ربما تبلدت مشاعرنا لهول ما عانينا، مراقبتي الدائمة لصديقتي رهام تبثُ الحزن في نفسي، وتجعل الذكريات البائسة ماثلة أمام عينيّ، دائمة حاضرة على الرغم من أفولها، أشعر بالعجز وأنا ألحظ ذبولها أمام عينيّ يوماً بعد يوم، أتقرب منها بمحاولات طفولية علّي أرسم البسمة على شفتيها.

أضع مخططات لزياراتنا أيام العطل في يومي الجمعة والسبت، أحدثها وبعد جهد طويل، أيقن أن الحديث مع الأموات لا يجدِ نفعاً، خرجنا ثلاثتنا إلى مشواري السابق نفسه قاصدين سوق الحميدية والجامع الأموي لأكفر عن ذنبي، حيث خصصتُ نفسي بتلك الزيارة السرية، فلقاء العشاق يجب أن يكون ثنائياً لا مكان لثالث بينهما، لذلك آثرت اتمام تلك الزيارة وحدي، أمّا اليوم فنحن نعيش تلك اللحظات بطعم مختلف وجو أسري كله تعاطف وحنو، كنت أجد نفسي أماً لطفل عمره ثمانية أعوام ولطفلة تكبرني بثمانية أعوام، من بقي لها غيري ليتحمل انكسارات قلبها ويأسها من الحياة..

- حبيبتي رهام، انظري ما أجمل الحمام.

يصرخ وليد:

- ماما، هل أمسك بواحدة ؟

- وليد، ماذا اتفقنا ؟.

- حسناً، سأطعمها فقط. لن أؤذيها.

جهدت على انتشال رهام من عمق آلامها، من تلك البئر التي ابتلعت كل أحلامها، محاولات متواترة مني علّها تستعيد توازنها.

ندخل الجامع الأموي لتعانق خطانا هذه الأرض التي شهدت أعظم حضارات قامت على مدار التاريخ وعبرته بأعظم رجال التاريخ عمر بن عبد العزيز والحضارة الأموية وصولاً لصلاح الدين ويوسف العظمة أولئك الذين دافعوا عن بلاد الشام بأرواحهم الطاهرة وصلوا هنا في هذا المسجد، واليوم نحن نصلي في الجامع الأموي ونسلك طريقنا الواصلة بين الماضي والحاضر .وما أقساه من واقع يرمي بنا إلى لجات الظلام نبحث عن شذرة نور تضيء ظلامنا،

أرهقنا الأمس وما حمل معه من أهوال. بوظة العم بكداش محطتنا التالية، الخطوات نفسها والتفاصيل نفسها، بمذاق عائلي...
بعد انجلاء حالة الانبهار بالحرية التي تمتعنا بها، والتي كنا قد حُرمنا منها في الرقة بسبب عدد تلك الملابس التي كنا نرتديها، نتنفس اليوم هواء الحرية ليمتلئ صدري وأزفر بعض ما فسد في رئتي من هواء لطالما خشيت طرحه فأثقل صدري وأتعبه .
بدأت غربة روحية تجتاحني وأشعر بالإحباط يغمرني شيئاً فشيئاً، أنا أساس هذا البيت المتهالك أصلاً ماذا لو انهرت؟ ماذا سيحدث لطفلي ؟ وماذا سيحلُ برهام ؟.
لابدّ أن أظل قوية متماسكة، لا أستسلم لأي ظرف يحاول النيل من عزيمتي.
لم أجد تفسيراً لحالي، ربما هو غياب السند، فأنا قضيت حياتي بين أهلي وكان اعتمادي على إخوتي في كل شيء، نادراً ما كنت أحضر حاجيات المنزل .. وكان أخي الغالي هيثم هو من يتكفل بما يلزم، تداهمني تلك المرارة، مرارة وغصة لم أنسَ مذاقها، فيتوقف كل شيء من حولي ويشخص بصري لهول ما تذكرت، كان الله في عونك يا رهام، لا أعلم خسارة من منّا هي الأعظم، أحاول مواراة دموعي فأقتطفها على عجل وأغرق في تحضير الطعام كمحاولة للهروب من الأفكار التي تعصف بي وتعيدني عنوة إلى مدينتي المتعبة. أفعل ذلك وأنا مقتنعة أن "النحلة العاملة ليس لديها وقت للحزن. ([5])

---

5. وليام بليك

(4)

ذات صباح توجهت نحو مكتب تنسيق الفرات بعد تفكير طويل حدثت نفسي، يمكن من خلال العمل التوقف عن التفكير، ترددت كثيراً فالحال هنا مختلف، فأنا سوف أغرق بزحمة المواصلات فضلاً عن أعبائي والمسؤولية التي أصبحت أكبر من قدراتي، لكن قلت في نفسي لأطلع على الوضع ثم أقرر ما أفعل بعدها، تلك الأشهر القليلة التي مارست فيها التعليم الجامعي كمُحاضرة، لم تكن طويلة لأدرك جيداً تفاصيل العمل والمحيط الذي يجمع أفراده، كنت ألتزم مكتبي عن عمد لأن الأجواء كانت ساخنة ولم يسكني ودّ حيال كثير من أولئك المسؤولين في الجامعة، فانزويت أمارس عملي بكل هدوء بعيداً عن الأضواء فالعالم من حولي مرتعد ،مضطرب، وأنا في غنى عن أيّ اضطراب.

في تلك الزيارة لاقيت الكثير من الترحيب وقابلت الكثير من أصدقاء العمل ودونت الكثير من الملاحظات، لكن الوضع أكثر سوءاً مما كنت أتصور، ضياع سجلات وبيانات الطلاب التي لم تحفظ على الحاسوب بسبب منع المسلحين الموظفين من إخراج أي شيء من مباني الجامعات في الرقة.

عدا الفوضى في السجلات ومساومات على جهود الطلبة الذين يتمسكون بقشة النجاة من دون أدنى أمل، وأشخاص تلقي باللوم على إدارة الجامعة والأساتذة من المدرسين وأعداد كبيرة من الطلبة الذين جاؤوا للاستفسار عن مصيرهم، ولم يجدوا سوى الجفاء، نفوس متغطرسة وملامح حاقدة ورياء ونميمة في كل لحظة سانحة ... ما هذا ؟...

هذا ليس مبنى التنسيق، بل هو مبنى للتفريق، من تخاذل وتجاهل لتعب وكدح أولئك الطلبة، كيف له أن يكون في موقع مسؤول؟.. وكل ما يدور يدل على غياب المسؤولية وعدم الاكتراث بتعب الطلبة ومعاناتهم وتكبدهم خسائر مادية ومعنوية . فضلاً عن أعباء السفر.

بدأت أستشعر رائحة الفساد تفوح فآثرت الهروب، أنا لا أزهر في الصحراء، أحتاج لأرض خصبة، أحتاج لهواء نظيف، أحتاج لاحترام نفسي، لا يمكن لي أن أقف على أرض رخوة تميد بي كيفما تشاء، أو كيفما يشاؤون.

في طريق عودتي ملأتني خيبات كثيرة، أسير في شوارع دمشق المكتظة بالسكان وكأن سكان الأرض جميعاً يقيمون على هذه البقعة المُباركة، والباعة على الأرصفة يروجون لسلعهم يعترضون بعباراتهم طريق المارة، في محاولات مغرية لجذب المستهلك، أشق طريقي بأنفاس لاهثة من شدة الحرارة ومن ضيق نفسي ولم تغادرني مأساة الطلاب وأوضاع الكليات، فأستشعر بشاعة الواقع بمرارة . ما أبشع هذا العالم . بل ما أبشع سكان هذا العالم .

هل خلق الإنسان ليشوه جمال الطبيعة؟ تساؤلات أطرحها ولا أجيب عليها، ربما أحتاج لمزيد من التجارب لأتعلم كيف أكون مختلفة عن الآخرين وكيف أتعامل معهم...

فكرة العودة إلى التعليم في الجامعة، فكرة أرقتني كثيراً، كما أن الفراغ في داخلي في داخلي يتمدد فأتعب أكثر من ربط أحداث بأحداث ودماغي يكاد ينفجر . ما الحل.. ؟

تذكرت أنني صديقة الكتاب، متى آخر مرة قرأت فيها؟ لا أذكر تماماً. هل فقدت شهيتي إلى القراءة؟ هل باتت المطالعة جزءاً من الماضي؟ أريد الهروب منها كي لا أتذكر. ربما نعم، فأنا بحاجة إلى جرعة من النسيان...

لأنسى ألم الفقد، ألم البعد، وألم الغياب.

بات كل شيء مملاً باهتاً بلا ألوان، الروتين اليومي القاتل نفسه . أشعر بالملل يطبق على أنفاسي فأختنق، كل شيء جديد وبحاجة أكثر لسكب طاقتي للتكيف والتعايش مع متغيرات الوضع داخل البيت وخارجه . تتملكني رغبة في البكاء فأكبت عبرتي وأغرق أكثر في تفاصيل مملة.

أفتح صفحتي على الإنترنت تجتاحني رغبة خفية في الكتابة، تلك الصفحة التي لم أقربها منذ حوالي عام تقريباً. لم أكتب عليها كلمة، كنت أتصفحها بعد مجيئي إلى دمشق بضجر وأرى آخر الأخبار على صفحات الرقة، وأغلق الجهاز بشيء من المرارة، والكثير من الإحباط. باللاشعور نرتبط بها، تحاصرنا الذكريات بأدق تفاصيلها، تجذبنا إلى دوامتها عنوة ولا قدرة لنا بأن نعترض.

مدينتي الهاربة من شبح الموت .المنفية من الجغرافية الإنسانية.

لا تتركِي أبناءك يتلوعون عشقاً وحرماناً، لا تتركينا نهيم على وجوهنا في بقاع الأرض، لا تصدقي الإشاعات المغرضة بأننا بعناكِ أو تخلينا عنكِ، فأنت الحبّ الأول الذي لن يعوض عنه أي حبّ آخر، وأنت الأمان الذي لن يضاهيه أمان آخر، وأنت الجمال كل الجمال، وأنا أعشق السمراوات مثلك، الشامخات، العصيات،

الباذخات حناناً . لم تترك لنا طاحونة الحرب من سبيل، دارت رحاها على كل الأمنيات...
لم يكن ربيعاً كما صوروه، كان خريفاً. بل شتاء قاسياً .. كان كارثة غيرت مجرى التاريخ، والحضارة، غيرت الإنسانية، جعلت من البشر رجالاً حديديين لا يحملون في داخلهم جينات بشرية.
اشتريت عدداً من الكتب، وحاولت الانغماس في القراءة لأنسى وأجبر نفسي على القراءة لأكتشف في كل مرة أن الكتاب صديقي الذي لم يتخلَ عني، رغم أني تخليت عنه، ولم يخذلني كما خذلني العالم، ولم يغدر كالغادرين من البشر. في كل جلسة يبدد حيرتي ويزيد من عزمي ويؤنس وحشتي . يمدني بطاقة إيجابية. يصقلني أكثر من الداخل وكأني قبله كنت نسياً منسياً وقد "كنت أدرك بعمق أن أكبر واق من الجنون والموت المجاني هو الكتاب. ([6])

---

6. واسيني الأعرج

(5)

بعد انتهاء التزاماتي وترتيب المنزل ومراجعة واجبات طفلي الجميل ومحاولة ككل المحاولات التي تنتهي بالفشل مع رهام لتبديد همومها، أجلس مع كتابي بحلول المساء، أنهل منه ما طاب من معلومات، أعيش حالة لا شعورية معه، أحزن، أفرح، أتأمل، أسافر إلى عوالم مختلفة، مرات كثيرة أبتسم وربما أضحك إلى أن ينال مني النعاس، فأنام بجسد مُنهك وعينين مسهدتين كهارب من كل شيء، إلى أرض الأحلام.

لم تعد تروي شغفي تلك الكتب التي أقتنيها من على أرصفة الطرقات، رحم الله روح نزار قباني عندما قال : نحن أمة تمسح النوافذ بالجرائد وتقرأ في الفنجان. نحن أمة تبيع الأحذية في محلات فاخرة والكتب على أرصفة الطرقات.

أشعر أن الكتاب خسر رونقه، ولم تكن تلك الروايات تشبع جوعي الأدبي، فقررت أن أزور مكتبة الأسد وأطلع على مزيد من الكتب والمجلدات علّي أجد ما يشبع نهمي، استهوتني الفكرة لكن لم تتسنَ لي الفرصة للذهاب مذ أن عزمت على ذلك الأمر، كانت مسؤولياتي تحد من نشاطاتي، التي أحب ممارستها، فظللت أؤجل مشواري هذا حتى كدت أنساه، شغلني النت قليلاً فاتجهت أكتب بعض المنشورات التي تثلج قلبي وتخفف عني بعض الضغينة حيال ما يجري من أحداث سياسية متضاربة ومتسارعة ومحبطة.

أذكر أني كتبت مرة منشوراً بعنوان إمبراطورية النساء، قلت فيه: صباحكم فراتي...

أفكر في تأسيس إمبراطورية للنساء فقط، يتم فيها انتخابات عادلة ونزيهة .. بعد أن ثبت فشل الرجال في قيادة المجتمع وبناء الحضارة التي نرنو إليها، فمن الجدير بالذكر واجب تنحيتهم جانباً ووضع حجر الأساس لهذه الإمبراطورية، لقد تعبنا من كثرة النزاعات وإراقة الدماء، وصرنا نبحث عن مدينة يسودها السلام والأمان، لقد تجرعنا بما فيه الكفاية من الذل والتخاذل وغطرسة الرجال الذين يمارسون الهولاكية علينا، بالوقت نفسه يقفون أمام أسيادهم العقائديين متخاذلين لا يملكون القوة للدفاع عن أنفسهم ولا حتى كرامتهم وربما أيضاً أعراضهم".

سحقاً لهذا الزمن الذي جعل المبادئ تمتزج بعمق القوانين والتشريعات والأعراف لتنتج لنا أحكاماً نقف كما الجاهل أمامها، وأعلنت حرب باردة بينها لم نعد نتذكر من المعتدي ومن صاحب الحق، ومن سيد الموقف.

لنعيد أمجاد بلقيس وزنوبيا والخنساء، لم نعتد أن نتجرع الذل . لم نعتد الهوان، لم نجلس يوماً من دون حقنا، وإن لُجمت قوانا بسلاسل وقيود المجتمع العصبية والجاهلية، فنحن نمتلك ما لا يمتلكه الرجال، قلوب نظيفة وعقول حكيمة راجحة وأفكار جديدة ليست متوارثة وطاقات متجددة وإدارة راشدة وسدادة الرأي، نحن نستحق لقب سيدات بجدارة.

نعم .. أهلكنا المجتمع الذكوري بسطوته وجبروته من دون وجه حق، لماذا يمتلكون حق قيادة المجتمع بكل مكوناته وهم بالكاد يفهمون مثلنا نحن النساء كيف تكون القيادة.

القيادة بمفهومي، أن تكون شفافاً أن تجلس إلى عامة الناس وتشاركهم همومهم، أن تشعر بجوع الفقراء، أن تحرم نفسك الطعام إذا علمت أن أحداً قد ناله الجوع، أن تسعى لتخفيف وطأة الحرب بوسائل وسبل عدة، أن تحارب الفساد المؤسساتي والإداري، أن تحاسب الحيتان الكبيرة ثم الأسماك الصغيرة . هكذا كنت أكتب وأفكر في بناء تلك الإمبراطورية التي ستتولاها النساء.

بعد مناورات مؤجلة، توجهت إلى مكتبة الأسد، لأرضي فضولي، كانت شامخة وضخمة يتصدرها تمثال الرئيس السابق حافظ الأسد، وتبدو لي أنها قلعة شامخة محصنة منيعة لها هيبتها ورهبتها. تجاوزت السلم في الساحة باتجاه صالة ضخمة، توجهت إلى موظف الاستعلامات للاستفسار. وجهني بكل احترام وأدب، وبصدر رحب. تبادلت معه نظرات الشكر والامتنان بابتسامة راضية ليرشدني إلى أي قسم أتوجه. شعرت بنفسي عند دخولها كأني ملكة تدخل صرحاً تخضعه لسطوتها، تريد أن تمتلك كل ما فيه، كل كتاب، وأن تشعر بلذة ذلك التملك، أن تمارس طقوس السلطة، وتحرم القراءة إلا على الذين يبذلون الكثير للفوز بقلبها بعد مصارعات طويلة فحسبت نفسي كأنني ملكة فرعونية استأثرت بالسلطة لنفسها...

اعتلتني الحيرة من أين أبدأ؟ كل العناوين شيقة ومغرية، على الرغم من تخصصي في الماجستير بعلم الاجتماع إلا أن ميولي تظل نحو الشعر والأدب ، فكنت أريد أن أكتشف حالات الجنون لدى

الشعراء وأسرار المعلقات السبع وحرب البسوس وأشعار عصر النهضة والتاريخ المعاصر، تمنيت أن أقيم في هذه المكتبة بين الرفوف المثقلة بالكتب وأقضي بقية عمري أقرأ...

نعم ... أقرأ . أول سورة نزلت إلى سيد البشرية تقول له : اقرأ ... فلماذا نحن أمة اقرأ لا نقرأ ؟، نكتفي بذلك الإرث المتوارث الذي تعلوه الشوائب، ذاك الإرث الذي تفرع بحسب التيارات والطوائف لماذا نترك اللب ونكتفي بالقشور، لماذا نقرأ الحواشي ونترك السطور ؟...

بعد ساعات من البحث التي لم أشعر بمرورها، اخترت عدداً من الكتب، أذكر كان منها كتابان للمنفلوطي وكتاب عن حياة امرؤ القيس وأشعاره وكتاب لجبران خليل جبران، نوعت في العصور والكتب لأتذوق من كل النكهات التي حلمت أن أتلذذ بطعمها يوماً .. ثم توجهت نحو موظفة الجناح أو القسم لتدوين البيانات.

كانت زيارة رائعة، كانت ثروة لا تقدر بثمن أحملها بحرص وخوف شديد ألا أفقدها أو تسرق مني في الطريق، دخلت المنزل وقد حل المساء وصاح بي الوليد ، ماما، لماذا تأخرت ؟..

- يا صغيري.

كعادته يفقد الأمان من دوني، ولأول مرة منذ قدومنا دمشق أرى رهام تجلس إلى جانب الوليد كأنها تؤنسه وتبدد خوفه لحين عودتي..

- رهام كيف حالك اليوم ؟

نظرات حزينة تلتمع في عينيها وكأنها في حالة وعي هذه المرة، تومئ برأسها أنها بخير وتنهض للعودة إلى سريرها وأنا أقوم بدوري لتجهيز الغداء الذي تحول إلى عشاء بسبب تأخري خارج المنزل، كان المساء رغم كل الألم هادئا مؤنساً، وديعاً، هناك آمال ترحل بكَ إلى حدود اللانهاية.

احترت بأي كتاب أبدأ، فأنا في حالة شغف لقراءة الكتب الأربعة معاً، لكن لا يمكن، سأبدأ بأقربها إلى قلبي فالأقرب، كلها قريبة وكلها شهية وأنا شديدة الجوع لقراءة سطورها والنهل منها حد الارتواء. حينها قلت : أيتها الذاكرة لا تلثمي جراحي، فربما جداري الخرافي قد يتهاوى فأسقط على ميراث خيباتي، لا تثقلي علي بوابل السهام التي تعيد نزف آهاتي، لنتفق ونبرم عهداً بأن نتحاشى بعضنا بعضاً، اتركيني بسلام وأنا سأبذل لكِ ما أوتيت من طاقة للحياة، أفرغي صندوقي العظمي من كل شيء واتركيني بسلام.

(6)

لطالما آمنت بقاعدة تقول : التعمق بالآخرين يزيد من خيبات الأمل نحن في البعد نرى الأشياء جميلة لها بريق خاص، ولكن حال امتلاكها أو محاولة التعمق بها واكتشافها نتوصل لقاعدة جديدة مضمونها : ما أجملهم في الغياب، كانوا متألقين أكثر، كانوا أشهى ومن هنا ينبعث الأمل أو يموت .. نحتاج أن نضع إطاراً ذهبياً حول ملامحهم ... نحتاج إلى الكثير من الأزهار لصنع أكاليل نضعها تاجاً على هاماتهم، نحتاج إلى أمطار نيسان كي ننشد تحت المطر خلود حبهم ...

توالت زياراتي المثابرة إلى مكتبة الأسد، وأنا أعيد مجموعة الكتب التي استعرتها وأحضر كتب أخرى جديدة في محاولات بائسة لتبديد الملل والهروب من اليأس، فأدمنت الكتاب حتى صار من الصعب عزلي عن الكتب والكتابة، مرَّ الصيف على عجل وبدأت ملامح الخريف تطرق الأبواب. لم تعد تلك الطقوس موجودة لاستقبال أي فصل بغض النظر عن أسماء الفصول وصفاتها، الأيام ثقيلة متعبة متشابهة بالرتابة القاتلة نفسها، كما ننتهي نبدأ..

آمنت يوماً أن الجبال لا تموت، ولا ترحل...

بمرور الأيام تزعزعت ثقتي بتلك الفلسفة، فهناك عوامل كثيرة قد تؤدي بدورها إلى زعزعة أو انهيار أو تلاشي الجبال، أول الجبال الراحلة في حياتي، والدي...

فقدت ذاك السند الذي كان شامخاً كالجبال، ذاك المزيج الغريب الباذخ في كل شيء، جمع في عاطفته السلطة والقوة والحنان، كان دافعاً يحثك على المضي رغم الإحباطات قُدماً،

بموته تراءى لي موت جميع الرجال في عالمي، لم أعد أرى بغيره من الرجال ذلك العطف الأبوي رباني المصدر، فلكل رجل غايات منفردة وعاطفة مختلفة، أما تلك العاطفة فهي محددة به ولن تتكرر حسب وجهة نظري...

أنا ابنة البادية منذ طفولتي آثرت المرتفعات في قريتنا الصغيرة، كنا نصعد جميعاً على أعلى تلة في القرية فأرى العالم من حولي يصغر كلما اقتربنا إلى القمة.

ومنذ ذلك الحين أشعر أن الجبال تميد بي وتتنفس، تحملني على أكتافها لأرى العالم بعين الحق، كل شيء يصغر ويتضاءل والناس تتقزم، شعور يتملكك، الترفع بالنفس عن الصغائر كطير جارح يختار أعلى القمم ليقول بكل غرور، أنا سيد نفسي أنا ملك نفسي، لتدرك أن الإنسان من هنا فقط يكون خليفة في الأرض وسيداً شرعياً لهذه الأرض.

الخطيئة وتفاهة الحياة...

تغزوني أفكار غريبة ساعة استسلامي لأحاديث جنية العقل ويحتدم النقاش فيما بيننا .. أنهرها بقسوة ولكنها تأبى الرحيل . تناهض ذاك الفكر المتوارث الذي يقول دائماً إن حواء سبب نزول آدم إلى الأرض وحرمانه من الجنة، وحقيقة أن حججها تروقني فاستمع بصمت..

جاءت مجموعة من الدراسات الحديثة في تفسير القرآن الكريم التي تنفي تلك التهمة الأزلية عن حواء لتظهر براءتها بعد آلاف السنين والدليل في قوله تعالى : "فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب

عليه، إنه هو التواب الرحيم " .وقوله تعالى : "فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ".

وهذا دليل من كلام الله عز وجل لا يحمل فيه حواء وزر شجرة الخلد وربما لم تكن شجرة خلد، لكن الله تعالى أراد اختبار إيمانهما به وبكلامه لكن " خلقنا الإنسان من عجل".

دائماً نبحث عن الطرق المختصرة للوصول للغاية التي نرنو إليها ولو كانت حواء تحمل وزر انبعاث الحياة بذنب تلك التفاهة المزعومة والتي ربما لم تكن شجرة تفاح أصلاً، فالله تعالى أعلم بما خلق.

إلى اليوم نتحمل نحن الجنس الأنثوي أخطاء الرجال وتفاهاتهم ونتائج الحماقات التي يرتكبونها على الرغم أن كل الفكر الشيطانية من ابتكار الرجال وكل صانعي الموت هم من الرجال .

فإذا كانت حواء سبباً للحياة، فآدم أول سبب للموت عبر التاريخ، وفي عصرنا الحاضر حصاد الحرب من ملايين الأرواح بسبب نوبات هستيرية لمجانين جعلوا شعاراتهم الحرية، ثمنها الدماء، ضاربين عرض الحائط بقوله الكريم {أن من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض كأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا}.

على الأقل نحن المسلمين يجب ألا ننسى ذلك، فنحن نقرأ ولا نطبق، نتكلم ولا نفعل، نتمجد بأفعال الأسلاف ولا نمتلك القدرة على تغيير أنفسنا، كيف لعالمنا أن يلج في حراك الحضارة؟

قد تنهال علّي التهم بسبب نظريتي التي قد يفسرها البعض بعنصرية تنحاز للمرأة، ولكن عبر التاريخ لم يرد اسم امرأة صنعت قنبلة نووية أو اخترعت جهازاً له مضاره على البيئة وحياة

الإنسان، لطالما آمنت أن المرأة صديقة الطبيعة، هي كل المواد التي تدخل في دورة حياة هذا الكون، هي الهواء _ الشمس _ الأكسجين _ الماء...

ليت مجتمعاتنا تدرك كم الإسلام أعزها وأكرمها وكم من أعداء الإسلام انتقصوا من حقها وكرامتها وانحدروا بطاقاتها إلى منحدر الرذيلة.

أترجم هذا بما أحمله في داخلي من رسائل الإرهاب إلى العالم، فرسالته إلى المرأة كانت قاتلة مدمرة لأي كائن بشري، مارسوا طغيانهم على كافة الشرائح في المجتمع، وكان للمرأة النصيب الأكبر، صوروا الإسلام أنه العدو الأول للمرأة بمحاولات غير بريئة لطمس معالم الدين الحنيف، براءة لديننا منهم ومن أفعالهم، عندما أحاول سرد المعطيات تعتلي حنجرتي مرارة قاتلة، مشاعر مكتظة متناقضة متوحشة في أغلب الأحيان.

نعم الرجال قوامون على النساء تحت مظلة الشرع، ولكن إكرام المرأة ومنحها لحقوقها أيضاً واجب على كل رجل.

في مجتمعنا لا زالت المرأة لا ترث على الرغم من أن الإسلام خصص لها نصيباً من إرثها من مال الأب والزوج والابن، يتغافل المجتمع عن هذا الحق ولا يحفظ الرجال إلا مقولة ناقصات عقل ودين.

على الرغم من كل التوضيحات التي جاءت لتبرر هذا النقص، إلا أن الرجل الشرقي تروق له هذه الجملة بحذافيرها، ومن هذا المنطلق وجدوا المسوغ لتكون ناقصة الحق في كل شيء، ما ذكرت كل هذا لأن أحداً منا يجهله، آثرت على ذكره ليكون

ركيزتي في تساؤلات كثيرة جعلت الغيرة والإيثار تموت في قلب رجالنا تحت حكم الإرهاب وأجندته وأنقل البيان من عمق تجربتي ويؤسفني أن أتجرع ذاك المرار للحظات تصعقني، أقول في نفسي ما أجمل الحياة عندما كنت أسمع عنهم ولم أرهم، وما أبشعها وأنا أتجرع ذلهم، تضيق بصدري الكلمات وتزدحم، لا أعلم من أين أبدأ ، هل أبدأ من أول محاولة معي لارتداء ما يسمى النقاب ؟ أم من محاولة تحطيم كبريائي عندما ذهبت للحصول على إذن سفر خارج الرقة ؟

أم من سجنهم لي بحجة أني خالفت اللباس الشرعي على حد تعبيرهم، أم من تنقلاتي بحذر وخوف لأن الوقوع عندهم بأبسط ذنب هو الوقوع بالشرك، أم من رجم نساء بريئات بتهمة الزنا .. وحبس كثيرات في أقفاص مع هياكل عظمية بين المقابر، هل سيغفل التاريخ عن تلك الجرائم ؟.

باعتقادي ذنب الولايات المتحدة الأميركية بقنبلة هورشيما أخف وطأة مما افتعله بنا ذاك التنظيم، ليس فقط الإرهابي، بل عديم البشرية، قنبلتها لنا كانت كائنات بشرية تُقتل بدم بارد .. مالت الموازين وتحول مجرى الفكر، تفككت العقيدة لتتصهر في عقيدة جديدة متطرفة تزرع الحقد والتنافر وبذرة الشر وكلها تمثلت بوجوه لوحوش بشرية كلهم رجال، بل أشباه رجال، هنا أسأل نفسي، هل أكره كل الرجال لأن عناصره كلهم رجال ؟... بالطبع لا، فقدوتي حبيبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، كان أعظم الرجال وأكثرهم رحمة بالنساء، وفي خطابه الأخير بالمسلمين قال:

" أوصيكم بالنساء خيراً، خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي".

ما أعظم رحمته وما أكرم خُلقه وإيثاره.

أقول هذا الكلام لأطرح سؤالي الذي يلح على نفسي دائماً:

يا أبناء قبيلتي، ويا أبناء رقتي لماذا ماتت بكم تلك الحمية ؟...

في رقتي، تتكون المعتقدات على أساس فكري فردي واجتهادات شخصية تشبع غرور الكثير من الرجال، فالأساس الديني نواريه بحجة الناس. عندما تنتفض المرأة لتقول: ما حرم الله هذا الشيء. يأتي الرد، لكن الناس لا تفهم هذا الكلام، يا من كنت سيدي وسلطاني وسندي وسندياني وبيت أحلامي وأماني، أين أنت عندما تم الاعتداء على كرامتي، وتحول بعض الرجال إلى جرذان تختبئ في ظل أي حركة لرجال التنظيمات الإرهابية. ؟ لا، ليسوا رجالاً، بل عناصر، كلمة رجال ترفع من مستواهم، أين كنت عندما جعلوا صوت المرأة عورة وهي بالكاد تهمس تطالب بجزء من حقها؟ أين أنت عندما جعلوا المرأة للمتعة فقط؟ وتناسوا أن أعظم نساء المسلمين كانت قارئة، أين أنت عندما حولوا الطفولة إلى صرخات متهالكة ؟...

كيف لجراحي أن تبرأ ؟، كلما تتماثل للشفاء، تحت سطوة الذاكرة تنزف من جديد صرخاتي، واحتضاراتي وأحلامي وذكرياتي تنزف ذاك الحلم الذي لم يكتمل، ذاك العرس الذي تحول إلى جنازة، ذاك الجمع الذي تحول إلى شتات، ذاك العيد الذي سافر مع الغياب.

(7)

بدأت رهام تستجيب لبعض محاولاتي الملحة لاستدراجها في الكلام، تنطق بعض الكلمات، وهذا إنجاز أحسبه عظيم وتقدم ملحوظ يثير الأمل في نفسي، تنتابني الحيرة عندما أحدثها، اهتماماتنا المشتركة جلّها مرتبط بالماضي، ماضينا معاً، ماضي "القرائض" أي النميمة بقلب أبيض وهي أقرب منها للنقد والمزاح ليس أكثر والقهوة السادة وأحاديث المساء والاتصالات الساخنة والمشاوير الشائية في شوارع مدينتي الثكلى، أي ذكرى ترتبط بالماضي هي انحدار باتجاه الهاوية، أحاول تبديد وحشتها بأي شكل، بكل ما أمتلك من إرادة وإن كانت من دون أمل، أثرثر كثيراً قائلة لها :أعلم أنك لا تحبين القراءة مثلي، أنا لا أطالبك أن تقرئي ولكن سأسرد عليك مضمون كل كتاب وكأنه قصة قد تروق لكِ.

عندما أدخل المطبخ تجلس على كرسي أمامي تطالعني بنظراتها البريئة المثقلة بالحسرات والألم، ترقبني باهتمام وأنا أرتب الأواني أو أحضر الطعام وأتكلم بين الفينة والأخرى، أناديها تعلمين يا رهام أن كذا وكذا حدث مع البطل وأن البطلة فعلت كذا وكذا، قد تتسرب لشفتيها ابتسامة تكون قد سرقتها لوهلة من باحات طفولتها وهذا دليل رضا، فبتُ أسعى جاهدة لاستحضار تلك الابتسامة بأي ثمن بغض النظر عن أي جهد احتاجه، وفي الحقيقة لا أراه جهداً بل واجباً يبعث السعادة في نفسي وأنا أحاول إعادة كائن بشري من الموت إلى الحياة.

حبيبتي رهام أنت لا تستحقين ما يحدث لكِ وما حدث، لكن الله تعالى سخرني كي أعتني بكِ دليل إلهي على أنه يحبك ومهتم بكِ ويحمل لكِ الخير الكثير.

على الرغم من الاختلاف بين صفاتنا الشخصية أنا ورهام، لكن توصلت لمفهوم مفاده الاختلاف لا يعني بالضرورة التنافر وعدم التوافق، قد يكون الاختلاف لغة التكامل كاختلاف الليل والنهار في تعاقب يحمل سراً إلهياً يثير الاهتمام.

كانت رهام كأغلب النساء تحمل وجهاً آخر ليس هو الوجه الحقيقي بل قناع يتلاشى ما إن يتعب قلبها من موقف ما، كانت غزيرة الإنسانية، نعم كانت إنسانة رقيقة شفافة لها قلب طفلة تتأثر لأي خطب وسرعان ما تلجأ للبكاء إذا تأثرت على شخص أو مشكلة أو تعرضت لاستغلال ما.

ولدت في ريف الرقة وتوفيت والدتها بعد الولادة بحمى النفاس، تربت على يد زوجة أبيها، عاشت سنواتها الأولى وحيدة ويتيمة تحدثني قائلة في إحدى حواراتنا الحميمة:

لا أذكر طفولتي عند زوجة أبي، لكن قلبي لا يحبها على الرغم ما تبديه من حنان نحوي ونحو أطفالي. لا أرى في نظراتها ذاك الحنو ولا ألمس الصدق في كلماتها.

أصدق ما تقول لأن عهدي بها لا تقول إلا ما تشعر به وما هو صادق، أذكر لحظة تعارفنا، كانت قصة طريفة من نوعها، وذاك من حوالي ثلاثة أعوام عندما كنت ذاهبة إلى السوق لشراء بعض احتياجاتي وأنا أمر على محل لبيع الأحذية النسائية وغالباً ما

تستهويني بضاعته لأنها مميزة وبالذات بعد التجديد الذي قام به لتوسيع المكان وتغيير الديكورات للجدران والسقف والواجهة الزجاجية ذات المقتنيات المميزة، آثرت الذهاب إليه أولاً لأني في كل مرة أبحث عما يناسبني وأعود إليه في نهاية المطاف، فقررت اختصار الوقت وتوفير جهد لمهام غير التسوق، وبينما أنا وشقيقتي نحاول الدخول، تناهى إلى أسماعنا صوت شجار أو مشادة كلامية بصوت مرتفع، دلفنا إلى الداخل وكان الجو مشحوناً للغاية، كانت هناك امرأة تتبادل إطلاق الرصاص الحي من الكلام مع صاحب المحل، حيث تقول له بصوت مرتفع تقول له :

"أنت ما تخاف اللّه" وهو بدوره يرد عليها :

"يا أختي محلي وأنا حر به".

ما إن انتبهت لوجودنا حتى قالت:

"احكمي بيننا. يبدو لي أنك فهمانة .هل يجوز لهذا الأخ أن يضع كتاب اللّه بين الأحذية؟".

كانت تشير بيدها إلى المكان. ألقيت نظرة سريعة فانتابني برود غريب ، وسرت في جسدي قشعريرة، ما هذا؟.

جرت العادة أن الناس يباركون نجاحاتهم وممتلكاتهم ومقتنياتهم بوجود كتاب اللّه فيها، وجل هؤلاء الناس قد لا يقرأ القرآن مرات قليلة في السنة أو حتى أنه قد يتركه مهجوراً، كنوع من التباهي أنه شخص صالح، وكأن الصلاح بالرياء، وكثير منهم يقرأ هذا الكتاب المقدس ولا يفهم معناه، ولو فهم معناه لا يطبق أحكامه، فأي شرٍّ نحن فيه وأي أمة بتنا؟ لم يبق من الدين سوى ما هو متوارث وما هو عادة وليس عبادة.

لم تتوقف، وتوجهت بحدة وصرامة نحو كتاب اللّه وحملته بيدها وبلحظة وضعته في حقيبتها، حاول التدخل لكنني تحركت بدوري أنا وشقيقتي ومنعناه من الوقوف أمامها، وقلت له :أمامك خياران، الأول : أن تترك هذه المرأة تحمل هذا كتاب اللّه وتمضي به إلى مكان يليق بقدسيته بعيداً عن الرياء ، والثاني : أن تلقي ببضاعتك جانباً وتضع هذا القرآن في أجمل الأماكن.

نظر إلي بامتعاض ودهشة وقال: "ما شاء اللّه، حزب من النساء، ما ناقصني إلا فلسفة النسوان".

بلحظة وعي هدأ روعه وعاد بهدوء إلى كرسيه خلف الطاولة مخرجاً من جيبه علبة سجائر ليلثم سيجارته على مضض وبشيء من الألم.

خرجنا نحن الثلاثة ولا نعرف كيف حدث هذا وكيف انقضى، نضحك تارة لذلك الانتصار النسائي، ونفترُّ انفعالاً لما حدث ولسوء تصرف هذا البائع وإن كان من دون قصد أو سبقه تعمد، وكحال كل النساء في مدينتي وفي العالم أجمع، ما أسهل أن يحدث التعارف بين امرأتين، لكن ما يميز هذا التعارف في مدينتي الفراتية تلك الصبغة التي نحمل إرث الماضي وحداثة الحاضر ... تسأل رهام : من أي العمام أنتِ ؟

فأجيبها : كذا وكذا...

تضيف: والنعم منك ومن أهلك.

وبدوري أسأل، وأنت ؟

فترد : من كذا .

وأقول بدوري وبما يليق :طلعنا قرايب.

تحملنا موجة من الضحك فالتعارف في مدينتي يكون باسم العشيرة أو القبيلة إذا صح القول، وهناك مكان مرموق للأحساب والأنساب، وكأن المدينة كلها تنحدر من أب واحد. ما أسهل أن نعرف بعضنا بلغة بعيدة عن الطائفية أو العقائدية، بعيدة عن الأحزاب والتوجهات، عن الحقد والكراهية، لغة التعايش السلمي المشترك تحت مظلة الإنسانية.

رهام، يا زنبقة فراتية جار عليها الزمان.

تجلس إلى نافذة الانتظار ترقب الأفق بلا أمل، تصارع الاحتضار، رهام، يا سمراء فراتية، قصدت جدائلها ودفنتها في قبره وحملت سلاحه للذود عن وطن الغياب، رهام ... أنت القضية، أنت كل القضية، اعذري عجزي فأنا مثلكِ لا أمتلك غير حزني و"ما يحدث مرة يمكن ألا يحث ثانيةً أبداً،لكن ما يحدث مرتين يحدث بالتأكيد مرة ثالثة. ([7])

---

7. باولو كويلو.

(8)

حمّى الحنين تسري في جسدي في ليل دمشقي شديد البرودة، داهمت مضجعي بعد رجاءات طويلة وتوسلات إليها يتسرب الكرى إلى مقلتي المسهدتين عند عناق الليل لخيوط الفجر المتمردة.

لعبة القدر تدفعنا للانغماس بتفاصيل حياة شديدة التعقيد، للانحلال بتلك التركيبة البشرية ذات الإيديولوجيات المعقدة، تسير وأنت شديد الحذر، فكل كلمة تسجل عليك، ويحسب لها حساب. أن تكون من الرقة يعني أن تكون إرهابي من دون هوية تتحاشى الاندماج بأبناء تلك المدينة، ربما هم ليسوا جميعهم أبناءها ولكن بحكم التهجير القسري أصبحنا من أبنائها لا شك أنها أم المدن وحاضرة سورية عبر التاريخ لكن التركيبة البيولوجية باتت مختلفة، أصناف من البشر تعطي نفسها حق الحياة فيها ولها أبناء ممن يقصفون دمشق كلما سنحت لهم الفرصة، وأنا قد هربت من الموت بحثاً عن الأمان، لا شيء غير الأمان، وأصناف جاءت للتحصيل العلمي ومجبرة على الإقامة فيها حتى لو كانت تمتلك معتقداً يجردها من الانتماء وسكانها الذين تحملوا معنا عبء الحرب ضاقت عليهم من شدة الغلاء ومُقاسمتهم كل مؤسسات الحياة، فمنهم من كان متعاطفاً ويشكو ما حل بنا ومنهم من كان متذمراً بما أحدثه قدومنا من فوضى في عاصمة السلام.

وأنا بدوري شاكرة لمن رحب وعاذرة لمن اعترض، فكرة أن مدينة الياسمين ملك للجميع وأرض للجميع كبدتها عبئاً كبيراً لكن

بنفس راضية، وهي التي اعتادت استقبال الأشقاء في حرب لبنان والعراق، فكيف لها الآن أن تلفظ أبناءها ؟.

"أمام دموعك المجدلية يا سعاد تتهاوى أسوار رجولتي، نحن لسنا برجال نحن أشباه رجال ".

رنت في ذاكرتي تلك الكلمات بعد انتهائي من اختيار مجموعتي من الكتب الجديدة، كعادتي هممت للخروج على عجل، فأنا دائماً أعيش في حالة تحدٍ مع الوقت الذي غالباً ما يباغتني ويتقدم على خطاي الحثيثة، أسير كعادتي بعينين مفتوحتين وقلب أعمى، أرتطم غالباً ببعض المارة في حالة شرود، مع محاولاتي المثابرة أن أظل يقظة أثناء سيري وعلى الرغم من كل أقنعتي التي أضعها على وجهي كسلاح احترازي يقي من الإساءة اللفظية أو قد تكون " تلطيشات " لا تتجاوز حدود الأدب، فرغم كل شيء يظل الرجل الشرقي يعشق الفراشات في حالة متوارثة بالفطرة، وربما أصناف من الرجال تثيرهم تلك الوجوه العابسة المتمردة التي تتظاهر بالجدية والحزم المبالغ بهما، ومع كل هذا لا ننفي حقيقة أن الفارس العربي حلم كل فتاة وأن تلك التعليقات العابرة تمنحك شيئاً من السعادة وتساعدك على تعديل حالة المزاج المعكر من الوضع المتعب.

أن تلتقط الأذن بعض تلك الكلمات أمر اعتدنا عليه ولكن أن تسمع شخصاً يناديك باسمك فهذا هو المستغرب في مدينة لا قرابة لك بها، وإن وجد على الأغلب لا يوجد معرفة شخصية...

أثناء سيري كالعادة، معتدة بنفسي مسرعة، يقطع مسامعي صوت أعرفه أو أنني بدأت التعرف إليه.

ـ سعاد ... لو سمحتِ...

كلمتان، نعم، إنهما كلمتان وهما كخزعة من دم كفيلة للكشف عن حالة المريض وأنا أتعرف من خلالهما على ذلك الصوت الأجش ... نعم أعرفه، لكنني أنفي أن يكون هو، لا يمكن، بالطبع. قد يكون الكلام غير موجه إلي. أتابع وبخطى أسرع كما لو أنني أريد الهروب من صدى ذاك الصوت.

ـ سعاد لو سمحتِ...

تتكرر العبارة مرةً أخرى .. إذاً فأنا بالطبع لا أحلم .. يدٌ تشد معصمي بقوة تخشى أن يفلت منها شيء ثمين وجدته بعد بحثٍ مضنٍ .. يستوقفني، لحظتها أدركت حقيقة ما نفيت، وأن الصوت أعرفه تماماً وعندها آمنت بأن الأذن تعشق قبل العين، بل ترى قبل العين أحياناً.

نظرة مسروقة كفيلة أيضاً بدورها أن تستكمل المشهد. يتلاشى العالم من حولي، ويسود بيننا عصر من الصمت، يلغي كل العصور السالفة .. نعم، لغة الصمت، في ظل هذا العصر، الصمت له لغة تتناقلها الحواس وتتبادل الحديث فيما بينها، ولا تسمع إلا دقات القلوب وكأنها قرع لأجراس تعلن موعد القداس.

ـ ما هذه المصادفة ؟.. لم أتوقع رؤيتك في هذا المكان، كيف حالك؟ كيف الأهل.. ؟ لم أتصور أن نلتقي يوماً هنا.

تنهال عليَّ الأسئلة التي بادلتها بالدهشة تارة، والخوف والصمت تارةً أخرى.

ـ الحمد للّه ..أجبته بعد أن استعدتُ صوتي.

هناك خلف الصمت غزالة تاهت في البيداء، تلتحف حمرة الغروب وقبل أفول الشمس في مخدع السماء، يتلاشى نورها وتغمض عينيها لتسكن الحلم...

ـ هل لنا أن نختار مكاناً للجلوس فيه؟ فأنا كلي شوق لسماع أخبارك .. أقصد أخباركم . لو سمحتِ...

أخباري خلف الصمت رجل توشح الغياب وولى ظهره للخيبات تاركاً خلفه مدينة تفوح منها رائحة الموت، ولا تلد سوى التعساء.

ـ بصراحة لا يمكن أن أبقى فترة أطول .لقد تأخرت عن البيت، يمكن في وقت لاحق أو مصادفة أخرى.

ـ لا تعاقبيني بذنبٍ ليس ذنبي، لماذا هذا الجفاء كله. ؟ لماذا تشيحين بوجهك عني ونحن نتحدث؟ أنتِ من اختار النهايات ولست أنا، لا ألومكِ قطعاً، نعم، أنا أحترم قراركِ ولكن لا تعاقبيني بالنفي، يكفي ما قد عانيته في حياتي، أنت من حكم علي بهذا الحكم، وقد رضيت به بنفس طاب لها المنفى وأنت خيمته أينما أحط.

ربما استطاع أن يثير عطفي، أو ربما التمست الصدق فيما قال، على أية حال قد فات ما فات، ونحن اليوم في مدينة أخرى، منفيّان، مشردان، وتائهان.

استطاع أن يمتص دهشتي وغضبي غير المبررين، واستطاع أن يقنعني بترك كل أسلحتي التي استخدمتها للدفاع عن نفسي مبرراً أنه لا يريد إلا السلام .

دائماً الأرصفة لها الحظ الأوفر في استضافة الصدف، وملتقى الأحبة ووداع المسافرين واللقاءات المسروقة على عجل .. الذين ما كان لهم الحكم في قرار .. وتحت نظرات المارة المستنكرة، شيء يبدد الحضارة من حولك ويمضي بك إلى مساحات لا يوجد فيها أحد سوى أنتَ ومن تحب، فلكَ كل الحق في البكاء كيفما تشاء، أن تضحك، أن تقفز من الفرح، أن تغمض عينيك متأملاً زوال المسافات ...

كما المقاهي، الأرصفة هي مقهى العابرين إلى المجهول.

يمدني بورقة كتب عليها رقم هاتفه من دون اسم، هو يعلم تماماً أين كُتب اسمه، وبيده السمراء المرتجفة الراجية ألا أصدها يعطيني هذه الورقة.

- عندما تجدين متسعاً من الوقت للحديث اتصلي بي، لكن أرجو ألا تطيلي عليّ الانتظار يكفي ما انتظرت في تلك السنين.

بأطراف أصابعي أسحب تلك الورقة، وأنا أتساءل في نفسي ماذا سيكون الغد ؟ ماذا سيحمل لنا ؟.

أسير ويسير بمحاذاتي. تحملنا كفوف الأرصفة. تخشى علينا من التعثر، وأنا مازلت أتعلم كيف أمشي بجوار رجل للمرة الأولى، حيث شعرت بأنه أبي أو ولي أمري يفسح لي الطريق في زحمة المارة، لا يريد أن يلامس معطفي أحد، هذه السلطة، سلطة

المسؤولية تمدني بشيء من الأمان الذي غادر نفسي منذ وفاة والدي رحمه الله.

ما إن وصلت إلى موقف الحافلات حتى نظر إليَّ قائلاً:

لا تحسبي أن اللقاء بيننا له أي معنى، سوى معنى واحد، أنني في هذا الوقت وبالذات وفي ظل هذه الظروف أقف موقف العاجز الذي يحاول أن يكفر عن ذنب اقترفه، ذنب حدث خارجاً عن إرادته، ترك مدينته للعصابات تنهبها وتدمرها، وظل يتفرج إلى أن قتلوها حين قتله عجزه، نحن يا سعاد عاهات هذا الزمن، من يرضى على نفسه هذا الذل، الذل قتل الرجولة فينا . وكي أكفر ليس عن كامل ذنبي، بل عن جزء بسيط، لا أريد أن أكون ذاك التافه الذي يعيد الكرة مرتين، مرة حين خسر مدينة، ومرة ثانية، مدينة لا يمكن له أن يتقبل خسارتها مرتين، وأنت مدينتي في ظل هذا المنفى.

هو لا يحتاج إلى شرح أي شيء فأنا أقرأ أفكاره وأسمع نبضات قلبه وحتى مجرى الدم في شريانه، إن كنت أنا مدينتك في ظل هذا المنفى، فمن يكون مدينتي يا أحمد؟ المدن في داخلي ليست رجالاً وحسب، المدن في داخلي كبرياء وعزة.

أن تفقد أنفتك وشموخك، أن تفقد الرغبة في الحياة، أعلم لحظتها بأنك فقدت مدينة كانت عالمك وكنت جزءاً منها. ودّعني بعينيه اللتين يملؤهما الخوف من ألا تجمعنا المصادفة أو موعد قد أرفض البتة أن يكون من ضمن جدول وقتي، فهو يعلم رغم شوقي

واحتراقي أنني قد أرفض أن أشاركه مقعداً على طاولة في أي مقهى...

ما أتعسنا حتى المصادفات التي من المفترض أن تحمل شيئاً من الفرح لشدة بؤسنا نحولها إلى أحزان، نجترها في كل جملة قد نتلفظ بها، أو في كل نظرة أو خطوة، في كل أمنية تبددت على دروب الشتات.

كل الحصون والأسوار أسيجها حول كتماني، فلك الله يا قلبي، ابكِ قسوة الأيام، لعل الدموع تخفف الوجع .

كان رذاذ المطر يلتصق على نافذة الحافلة، حبيبات خفيفة، ناعمة، بدأت تغير لون الأماكن في الطريق، الناس مشغولون كما العادة في الحديث عن مشكلاتنا اليومية، الكهرباء، المازوت، الغاز.

كل شيء ترتفع قيمته في هذا البلد إلا البشر، فهم من دون قيمة تذكر، تقرأ البؤس في عيون الناس التي تكيفت مع الظروف القاسية، يجلس إلى جواري رجل خمسيني، يحمل بيده هاتف " نوكيا " قديماً جداً، وما لفت انتباهي ليس قدمه فقط، بل أنه من دون شاشة، يبدو أنها تحطمت في اصطدام ما أو ما شابه ذلك، أنظر إلى وجهه الأرق وقد نبتت لحيته والشيب غزا القسم الأكبر منها، وعيناه تشعان طيبة وكأنه مستسلم لقدر لا مفرّ منه، إلى أين المفر؟ هذا حالنا .. نعم، مستسلمون للفقر، للحاجة، متعايشون مع هذا الواقع، الذي أثقل أوزارنا ولم يترك لنا متنفساً كي نستنشق هواءً نظيفاً، أن ترى العالم منقسماً إلى قسمين في مدينة

واحدة هذا رهيب، أناس تسافر ليس هروباً من الحرب، بل لتستجم وتركب السيارات الفارهة وترتدي أفخم الماركات وترتاد أغلى المطاعم وهي متخمة حد الإفراط. وأناس أبلغ مناها أن تتدبر قوت يومها من الخبز وبعض الخضراوات من دون لحم، ممَ يشتكي البروتين النباتي الموجود في العدس والفول؟ لا يشتكي من شيء، شكراً لمنظمة الهلال الأحمر السوري التي توصل ولو قليلاً مما يحتاجه المواطن، فهم لهم الحق أيضاً في امتصاص أصابعهم بعد كل هذا الجهد والعمل المضنِي.

أصلُ قبيل المساء، فالمسافة جداً بعيدة في ظل تلك الاختناقات المرورية والحواجز التي تتطلب منا أحياناً الوقوف لنصف ساعة حتى يصبح الطريق سالكاً، ألقي بكتبي على السرير وألقي بجسدي بجانبها، أنا منهكة، جداً منهكة، أن تسترجع كل شيء دفعة واحدة فأنت تحتاج إلى أن تكون رجلاً فولاذياً لا يتهاوى إلى الأسفل وكيف إذا كنت أنا، لست برجل فولاذي ولا حتى برجل عادي، أنا تلك الممزقة التي عاثت بها الأهوال، فظلت منكسرة من الداخل وبالكاد تدعي أنها منتصبة، كيف لامرأة مثلي شاب شعرها من العجائب وتحسب أنها تقف على أبواب المئة عام، وتحتاج إلى معجزة، بل معجزات كي تنسى أن تتحمل كل هذا؟ لا، لا يمكن أن ننسى، كي تتناسى جحيم الذكريات.

أنهض بخطى مثقلة لأتفقد أسرتي الصغيرة، صوت التلفاز يحمل إلي رسالة بأن الوليد قد أنهى واجباته، قبل عودة الكهرباء، فالساعة الخامسة تكون حصتنا من التقنين الكهربائي وهو

الوقت الذي يتابع فيه طفلي برامجه الكرتونية المحببة إلى قلبه ويعيش معها بكل حواسه وحماسه، فهو يتفاعل معها لدرجة التشجيع وعلو الهتافات والتصفيق أحياناً، حتى تلك البرامج تتحدث عن الحرب، أكاد أقسم، أنها صممت لتنتزع الرحمة من قلوب البشر وتزرع بهم العدوانية، حاولت كثيراً أن أثنيه عن متابعتها، ولكنني أعود لأندم، فهي متنفسه الوحيد في شتاء بارد ومدينة تتسلح في المساء وتعيش ظروف الحرب القاسية، أمّا رهام فأجدها مستلقية مستسلمة تحت مجموعة الأغطية كسلاح يقي برد الشتاء، أجلس على طرف سريرها قائلة :

لن تصدقي بمن التقيت اليوم.

ظلت غير مهتمة وهي تركز بصرها في نقطة لم أرها أنا، أو لم أفهمها، أتابع:

رأيت اليوم أحمد، تتذكرين ذاك الرجل الذي حدثتك عنه، أستاذي في البكالوريا، هل تتذكرين حديثنا عنه ؟ نعم، صادفته اليوم على الرصيف، على بعد أمتار من المكتبة، لن تتصوري كم أنا سعيدة وتعيسة في آن واحد.

تجول ببصرها في الغرفة وتحملق بوجهي كما أنها تطلب مني المتابعة.

لم أتخيل أن ألقاه هنا في غمرة الزحام، في الشوارع المكتظة بملايين الوجوه، أن أرى وجهه هو، ذاك الغائب منذ سنين، وكأن المدن تتلاعب بعواطفنا، فمدينة حكمتنا بالغياب ومدينة حكمتنا باللقاء.

مرارة تعتلي حلقي، أردت أن أقول لها: هل تذكرين جلسات المساء في ذلك الليل الحزين ؟ لا أذكرها، فهي مازالت تسكنني رغم الغياب وكثرة السنين. لا أعلم يا رهام، أنا لا أحبه هو، أحبُّ عذاب الحب لأجله، ربما استمتع بتعذيب روحي بمحبة الذين لا يمكن لهم أن يجلسوا في مرابع حياتي كالذي يحكم على نفسه بالصيام مدى الحياة والطعام في متناول يده.

(9)

أخرج الورقة من حقيبتي وأتأمل تلك الأعداد وأنا أرسم لكل عدد قصة ولحن يرتله نبض قلبي على عجل، ما أضعفني أمام سطوته، وما أقواني أمام واقعه، ألا يكفي، أما آن الأوان كي أمزق هذا القناع البائس الذي وضعته على وجهي؟ أما حان الوقت للقيود أن تتحطم من معصمي؟ أما آن وقت فتح أبواب الزنزانة وامتلاك حريتي؟ لقد أرهقت روحي من السجن والعبودية لحروفي ونفسي التي تعبت . تعبت من الإدعاء بأنني لا آبه لأنوثتي...

تتمدد الذكريات إلى جانبي على سريري، أشتم رائحة الحنين ورائحة الموت، أرى زهو الحياة وغبار الغياب بآن واحد، ما أسوأ هجوم الذكريات وكأنها صرة تحمل بداخلها كل شيء تحتاجه، إلا شيء واحد مفقود وغائب، تلك اليد التي تحملها في دروب الإياب وحاجتنا لها ولطريق نسلكه في حلم العودة، أتأمل جمالها تلك المجدلية السمراء تأسر قلبي عند تخيل سحرها، دروبها، الجسر القديم، ملامحها الهادئة، تلك البساطة التي تجذب الناظر رغماً عنه ويعترف بفتنتها ويعترف بأنها أجمل النساء.

العلاقة بين التراث والحداثة علاقة أزلية تتجدد وتتجدد أثواب الحياة، على هودج المواليا نعود ذاك الرحيل إلى أرض الفرات، يثير غبطة المساء وهو يتشح بتلك الحمرة الكونية، كآبة ترتلها السماء، كشيخ باذخ الزهد أصيب بشرك الهوى ومس الأشقياء، ليصدح كناي أرهقه الحنين بعد الفراق، عل الرياح تشي به فيتهادى إلى مسمع تلك الأميرة السمراء" يا عين مولييتين يا عين

موليا، جسر الحديد انقطع من دوس رجلي" تبتسم نشوة فينساب الفرات ليغمر صحارى عاقبتها السحب بالهجر والجفاء.
تخط الأساطير بالغزوات والخيل الجامحات في غسق الدجى ليتعالى هلاهل الماجدات ... باركيني وامسي على جبيني غبار الشتات بعد تلك اللعنة عدنا أشقياء .الآلهة تترفع عن الدنيويات، لا تعلن حتفي فما زال هناك الكثير من الأمنيات، وقلبي مازال على قيد الفرات وإن أرخى الليل سدوله كيف للقلب أن ينام؟ نقلب صفحات الحياة قديمها وجديدها بأبصار شاخصة لهول المرأى فينسل الخوف إلى قلبي . أحتاج إلى جرعة سريعة من النسيان لنسيان ألم البعد وألم الفقد وألم الغياب، حالات النزاع الدائرة بين الجفون المسهدة والنوم قديمة بقدم جرحي، بل بقدم أولى جراحي وآخرها، لربما لم يكن آخرها، فاللّٰه أعلم ما الذي تخبئه لنا الحياة.
تتسارع الأحداث السياسية بين صد ورد فالاتفاق بين الدول العظمى هو خطوة لإحلال السلام، يتسرب الأمل إلى القلوب الملوعة بانتظار أيّة بادرة تلوح بمنديل العودة مهما كان والأرواح هالكة لا تحتاج إلى جلسة استئناف، راضية بأول نطق بالحكم، المهم أن تستريح من همها وتتحرر من مخالب الإرهاب الذي أرهق تلك الأرواح بادعاءاته الكاذبة، دخول ما يسمى بالحشد الديمقراطي أو دخول ما يسمى بالأكراد، دخول إبليس وأعوانه ورفاقه، ليس مهما،لأنه لن يدوم، والمهم هو الخلاص.

أذكر عندما كنا ننام بعيون مترقبة الموت في كل لحظة وغير مكترثة بهذا الموت، لأسأل هل هو اليأس أم هي بطولة؟ لا أعلم، الذي أعلمه أن الموت صار مضيفاً وخاصة عند المساء، فهو صاحب ذوق رفيع يختار الأجمل، الأكثر شباباً، له حاسة شم قوية تميز عبق الأزهار وعينان تعشق لون الأقحوان، وله يدان تميز ملمس الأشياء ليختار نعومة الأطفال، يا له من موت يعشق بسلطته، يهيمن بعظمته على أثمن الأشياء.

ما أتعسني في ظل الغياب عن مدينة القلب، كيف الحال يا وطن الروح؟عليلة وبك الجراح تنزف. قطعوا أوصالك بحقدهم، وانعدام إنسانيتهم. قتلوا التاريخ بدم بارد، غير آبهين بأن التاريخ سيظل يكتب، سيكتب الجرائم والمجازر وكل الإشاعات الكاذبة وكل الحقائق الغائبة والحق هو الشمس، ومهما طال الليل فالشمس ستشرق.

معالم مدينتي تتشوه الواحدة تلو الأخرى، من المركز الثقافي إلى جسر الحديد، ومن ثم جسر الرشيد على يد طيران التحالف، وقبلها دمر خفافيش الظلام مقام أويس القرني بحجة أنه بات مكان يعبد، وليس مكاناً للعبادة، قتلوا تلك البساطة بكل بساطة ومن دون أعذار ولا مبررات وجميع الأعداء اتفقوا على أن الهدف هو قتل الشعب ودمار البلد، والجميع يسير نحو الهدف، ونظل نحن تحت أقدامهم نحترق والعالم في منأى عن صرخات المستضعفين أو الشعب الذي اغتصبت إنسانيته وغدا مسلوب الحناجر ومحروماً من الكلام، العالم أجمع فقد الحياء لكثرة

الكذب، فلا داع للنزاع، نحن أمة تجرعت مع الحليب التلفيق والخيانة، فلا عجب إذا باعوا القدس والعراق واليمن، لماذا لا نباع نحن ولا توجد خرائط لديهم تفتح إلينا الطريق؟.

من لا يعرفك يا مدينتي لايعرف معنى العشق بين الأرض والإنسان.

أحمد..

ذاكرة من مدينتي، ذاكرة ذاخرة بالأمل والألم، حلم لم يولد كي يعيش، حكاية بدأت ولم تكتمل، شاب طموح تغمره تلك الخصال التي يفتقر إليها غالبية الرجال في هذا الزمن، اختار البعد عن مسقط قلبه كي يترك من أحبهم ليعيشوا بسلام، حتى لا يجرح مشاعر أحد، واحتمل تلك الغربة لسنوات طويلة، لم يمسح خلالها أرق الشوق ولم تغفل عيناه عن الوفاء.

غادر الرقة مع زوجي المرحوم وليد إلى العراق أثناء العدوان الأمريكي على بغداد كالكثير من الشباب المتحمس، عاد أحمد واستشهد الوليد في معركة المطار، وقد حمل وصيته وآخر رسالة منه لنا، ومن بين تلك الوصايا أن يكون والداً لطفله كي لا يعيش يتيماً، ولكن جاء الرفض سيد الموقف قطعاً، وشاء القدر أن تنبث بعض الأزهار في تلك الأرض الجافة، وسرعان ما جفت لقلة الأمطار.

بعد لقائنا الأول ظلت رائحة الياسمين الدمشقي، ورائحة الذكريات وحنين الأمهات وروائح التاريخ الغني بالأمجاد، كابتسامة شمس آذار، تبتسم عيناه لي كل صباح، أقبل جبينه الذهبي وأمسح بيدي على رأسه، أعانقه أحتضنه بكل حنان،

بكل شوق، وهو بين ذراعي. أحمله طوقاً على صدري ولؤلؤة على جبيني وياسمينة في يدي وهو ليس حبي، بل فلذة كبدي، أحضر له كوب الحليب بالشوكولا وعندما يبتسم تبتسم أزهار الكون احتفالاً بآذار، يحمل حقيبته ويطبع على خدي قبلة الصباح، يلوح لي بيده الناصعة البياض على الرغم من سمارها فهي لم تتلوث بوساخة الأشياء، ما زالت طاهرة يفوح منها عبق الطفولة وما أروعه، لا أتخيل حياتي من دونه، هو من جعل لحياتي قيمة معه، هو ذاك الرجل الصغير الذي أمام عيني يكبر ويكبر أملي به، وإن زاد عمري مع عمره، فمن عمري أهديه عمراً بأكمله.

يتهادى إلى مسمعي صوت هاتفي. بمرح طفلة أقفز نحوه، فأنا أخذت فطور الصباح من قبلة ولدي، والصباح لفرحي يدندن لا ضرر إذا رقصنا للحظات بعد حزن معاً، يأتيني صوته من الحل.

ـ صباح الخير.

أتهكم هل هو؟ نعم صوته، يا إلهي بماذا أرد؟

ـ كيف حالك ؟

ـ انتظرت وفاض بي الصبر وفجأة نفد، بحيث أني لم أعد أستطيع الانتظار أكثر، أعتذر إذا كنت أزعجك، لطالما أيقنت أنك قاسية، ولكن لم أتصور أن تكوني قاسية لهذا الحد.

يطول بيننا الصمت...

ـ أنا آسفة كنت مشغولة ببعض الأمور، أعتذر.

ـ لا بأس، سأقنع نفسي بعذرك، ولكن أتمنى أن تمنحيني بعض الأمل، هلا قبلت دعوتي إلى فنجان قهوة الصباح، فأنا اليوم فرغت

نفسي من كل المهام، لطالما انهمكت بأكثر الأشياء التي لا تحتاج لجهد لكي أبدد وحشة الوقت، وعندما عادت إليّ متعة الدقائق والثواني، نسفت كل شيء بصمتك، أعتذر لوقاحتي، ولكن لا حلول أخرى للحيلولة من هذا الموقف، أنت دفعتني لأن أفرض نفسي وأعتذر على ذنب لا أعده ذنباً، بل هو حق، حق قداسة الماضي وحق شراكة الأرض وحق أننا شربنا من فرات باق، سعاد أنا تعبت، وتعبت جداً.

أرجوك اجمعي شتاتي، بلغيني تاريخ رحيلي وغيابي، بلغيني رسائل الموت ومرارات الصدف وتعاسة الحلم وأنهار الشوق.

ـ لا أستطيع، وأنا أعتذر منكَ.

تتوقف أنفاسه بعد كلمة لا أستطيع، لينهال عليه فيض من مرح وأنا أقول وأنا أعتذر منكَ.

ـ طيب، اختاري مكاناً مناسباً كي نلتقي فيه.

ـ بصراحة، لا أعرف الأماكن جيداً، اختر أنت .

ـ في كافتيريا الأماكن. ما رأيك ؟

ـ العنوان لو سمحت.

كلماته كأسهم تخترق صدري، فيضيق نفسي وتتسارع دقات قلبي وتتملكني رعشة تهز كل أضلعي. يا إلهي لماذا نزلت عند رغبته؟ لماذا لم أقاوم سطوته؟ لماذا فتحت أبواب زنزانتي له؟ لم أفكر كثيراً بما سأرتدي، فمعطفي دائماً يختار نفسه، أما باقي الترتيبات أعتقد أن الطبيعة أقرب إلى نفسي وأننا نتحد لنشكل هذا الكل المعقد، فأنا أقبل خسارتي الأخيرة. تنازلت مذ خسارتي

الأولى عن حقوق الأنثى بقلب راض، فلا حاجة، فقلوبنا مخضبة بالحزن، والوجه مرآة القلب، فما من داع لإظهار العكس وعيناي سوف تتحدث .

موعدنا الساعة العاشرة صباحاً في كافتيريا الأماكن، أرتب نفسي كما لو أنني أرتب أحداث الماضي على مهل، وأركن كل حدث في زاوية من زوايا وجدي، يغمرني فيض من الحزن وتعلو حنجرتي تلك المرارة التي تجرعتها كثيراً، أحاول تشتيت انتباهي عما يجول في داخلي من ازدحامات لا أريد لها اليوم أن تحضر موعدي معه، أقول : اتركيني بسلام. ألا يحق لي أن أرتشف جرعة من السعادة لو للحظة؟ لا بد أن تقطع الأحزان كل السبل للحيلولة من وصولها إلى قلبي، أي عدالة ترفض الاقتراب مني؟ أخيراً انتهيت، أحمل حقيبتي وأدخل إلى غرفة رهام.

- رهام، حبيبتي. أنا خارجة لن أتأخر. سأعود قبل عودة الوليد من المدرسة، هل تحتاجين شيئاً من السوق ؟.

لا تجيب على سؤالي فأطبع قبلة على جبينها المعتد رغم الحزن، وأخرج للقاء القدر مرة أخرى...

يسيطر عليّ قلق شديد لا أعرف كيف أفسره، هل أنا أخون الثقة؟ هل أنا خارجة عن قوانين العشيرة ؟.

هل أنا أستغل غياب الحسيب والرقيب ؟ لا أعلم، لكن ما الغريب في لقاء في مكان عام ؟ وهو مزدحم بالناس، ما المشكلة ؟...

رغم كل المبررات التي أقدمها لنفسي، لم يتبدد القلق وينقبض صدري وتضيق بي الشام، أحتاج لكمية أكبر من الأكسجين،

أنزل قبل الموقف المحدد للحافلة، أحتاج لأن أمشي قليلاً علّ الاضطراب ينجلي عن صدري، أطالع المارة وكأني أبحث عن أبي وإخوتي لأعود إلى البيت خشية أن يروني وأنا ذاهبة إلى هذا الموعد، كل الوجوه غريبة، لا أعرف أحداً، أطالع الطفولة، فأنا أحب خطى الأطفال التي تشق الطرق بحيرة وخوف أن تضيع يد الأب أو الأم. تمنيت لو أن يد أمي تمسك بيدي وتأخذني إلى البيت لأنام وأنسى كل ذاك البؤس وكل محطات العذاب، وأفرغ صدري من حمولات الدرب، فأنا منهكة من دوي طبول الحرب وليالي الرعب، ومنهكة من الغربة في وطني...

على الرغم من محاولاتي التي باءت بالفشل في عدم الوصول، أصل، وأرقب واجهة المحل بعيون متعذرة لا تريد الدخول، ورغم كل شيء لا بد من الدخول لأكون معه وجهاً لوجه. يا لقدري المضحك المبكي، يا لتعاستي، يا لشقائي... يجلس على طاولة في زاوية الصالة وأمامه الساعة، ينظر إليها بإمعان وقلق، يرفع رأسه ليلمحني ويلوح بيده كي أستدل عليه، أتقدم بخطوات مترددة على الرغم من أن الطاولات عامرة بالزوار والمكان هادئ نوعاً ما، وتنبعث منه أغاني فيروز وهي تعانق وجه الصباح بكل حب وحنان.

- صباح الخير.

- أهلاً .. صباح النور.

يمد يده ليصافحني، أمد يدي بتردد وتلتقي كفانا بعد دهر من الاشتياق.

- تفضلي

يقولها وهو ويهيئ لي مقعدي...
يتأملني طويلاً وبصمت، لا أذكر أننا تفوهنا بكلمة لعدة دقائق، لا أعلم بماذا سرح فكره، وماذا كانت تتحدث عيناه؟ فأنا كنت خجلة من النظر إليه، وعيناه لطالما كانتا نقطة ضعفي.
ـ طمئنيني عنك. كيف حالك، وكيف وليد ؟.
ـ الحمد لله بخير، تأقلمنا مع الوضع الراهن، واجهت بعض الصعوبات في البداية، أما الآن فلا بأس، أراني أكثر استقراراً من قبل.
ـ أكيد كل شيء في بدايته صعب، ومع الاعتياد تتبدد صعوبة الأشياء، وأنت شجاعة لا خوف عليك..
ابتسم...
ـ شجاعة جداً، على العموم، شكراً على التشجيع.
أتمنى ضمنياً أن أسأله عن وضعه الأسري وزوجته وأولاده وأين يسكن، لكن هناك شيء يمنعني من السؤال، فيستطرد بعد صمتي الذي أراد أن ينهيه...
ـ أحضر للدكتوراه، أدرس في الآداب حالياً وأحاول ألا أترك أي ثغرة تداهمني منها الذكريات، حاولت في تلك السنوات الماضية أن أغرق نفسي بالكتب والدراسة والتدريس، علّي أنسى أو أتناسى قسوة الأيام وغربتي والحرمان، أن تكون في منفى أنت تفرضه على نفسك أمر أقسى بكثير من النفي مرغماً عن أرضك، وبعد تتالي الأحداث كل الجراح عادت نازفة، لم أتصور أن ألقاك في هذه المدينة التي حملت حزني وحملتني وقدمت لي الحياة بصورة

أخرى، دارت ضعفي ومدت لي يدها لتنتشلني من مستنقع خيباتي، في دمشق الأرواح تحلق، لأن الحياة ببساطة تعلن في كل لحظة أنك ما زلت حياً وتقدم لك الحب والدفء، لا أعلم ما هو السر بين الحياة وبين أزقتها والشوارع وقاسيون، رغم كل شيء فهي تشبهك، جميلة وشامخة وقوية .

ابتسم.

- قصدك أنا من يشبهها وليس العكس، أجل النساء كالمدن.

- سعاد لم تفارقني للحظة أي ذكرى، ولم تغب عن بالي أية كلمة، فلا تتهميني بالنسيان.

- أنا لا أتهمك، لماذا استوحيت هذه الفكرة؟ أنا أرفع راية الاستسلام لكل أنواع الاحتلال لأني غير قادرة على خوض أي معركة، فأنا منهارة القوى بالكاد متماسكة، خشية السقوط وأترك خلفي رهام والوليد.

تحنو نظراته الشفقة علي، انتبه لنفسي أني استدررت عاطفته لأكمل بنبرة مختلفة.

- صقلتنا الحياة وعلمتنا الحرب أن نكون أقوياء لمواجهة أي نكبة.

- لماذا توارين ضعفك الإنساني؟ هذا الضعف يعزز فينا تلك الإنسانية المفقودة، نحتاج لهذا الضعف لأنه يطهر النفس من شوائب الحياة ومن أثقالها، فالدموع بتساقطها يتساقط معها الهم من الأحشاء ويبرد القلب المشتعل بنار الحزن، نحن بشر يا سعاد بعد أن باتت البشرية صفة نادرة.

كان بتلك الكلمات كأنه يدعوني للبكاء، كيف أبكي في حضرته؟.ولحظتها وجدتني أهمس لنفسي:

"أصعب شيء في الحياة أن تلقى نفسك مجبوراً على تجاهل أشخاص كانوا في يوم من الأيام أجمل اهتماماتك. ([8])

لو تعلم كم أتمنى أن أبكي كطفلة فقدت أمها وبيتها ولعبتها وكل ما هو لقلبها محبب .أبكيك أنت يا أحمد، فأنت أثمن الأشياء التي خسرت ولا بد أن أبكيها بحرقة قلب بعد صمت.

- نعم معك حق، لا عيب من بلوغ تلك الإنسانية.

- لولا غياب هذه الإنسانية ما آل البلد إلى هذه الحال، لم يكتف البشر بأكل أنواع اللحوم التي حللها الله للإنسان، بل ظل يتوق للتلذذ بلحم أخيه الإنسان ويرتكب تلك الشنائع بدم بارد وهذا دليل الوحشية وتلاشي الإنسانية.

- أذكر مرة عندما كنت طالبة في الجامعة، حيث طلب منا أستاذ مادة علم النفس الفارق حلقة بحث، فاخترت حلقة بعنوان "الحوار البناء" ما زلت أتذكر تلك الحلقة لما عززته في نفسي من معاني ومفردات وكأني لأول مرة أكتشف وجودها وأحاول تفسيرها وإلى يومنا هذا ما زالت ترن في أذني .

سؤاله عندما يكون الحوار حول الوطن، هل تختلف صيغ الحوار ؟ وهل تختلف أهداف الحوار كما أدرجتها.

فأجيب...

---

8. جبران خليل جبران.

الحوار لأجل وطن هو تدعيم للبراهين والأدلة التي تؤكد ولاءك وانتماءك لهذا الوطن، فالحوار ليس حول كتاب أو موضوع عام، الحوار من أجل بقعة جغرافية، تحفة احتفظ بها التاريخ، يقطن فيها أبناء وطن واحد وأمة واحدة، لطالما كان شعارهم الإخاء والمساواة في الحقوق والواجبات ومبدأ التعايش السلمي ونبذ الطائفية، وأين نحن اليوم من هذا الكلام ؟ تعلم يا أحمد، تحول الحوار البناء إلى حوار هدام كل الغاية منه إثارة حفيظة الآخر، وتبديد صبره ودفعه لهدم كل الشعارات وإعلانه التحالف مع الشيطان لبلوغ هدفه بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة للأسف.

بات في قلب كل منا قضية وطن، وفي الوطن الواحد أوطان تمزقنا من دون رحمة، ما نفع كل ما تعلمنا إذا لم يكن ولائي وانتمائي لهذا الوطن الخالد؟ ونحن العابرون فيه ندمره بأحقادنا ونشوه التاريخ فيه وننسف أي معلم يدل على حضارته.

- صدقت ... نحن شر أناس دمرت أوطانها، نحن العرب خياناتنا عميقة بعمق التاريخ، ولم نكن في يوم أصحاب هدف واحد إلا ما ندر، كمحاولات يائسة سرعان ما تتهاوى بسبب الخيانة، والعظماء فينا تقتلهم يدّ الغرب العميلة، تخفي آثار الجرائم، من نسي القدس وأثر التطبيع مع ذاك الكيان المنتهك لعروبته؟ حيث نجح الغرب بتحوير قضيتنا الأولى فلسطين إلى عدة قضايا شائكة ومتشعبة يصعب الفصل بينها، ومن يقول إن الإنسان يتعلم من تجربته، أريد أن أقول له، الإنسان مجموعة من الوحوش، غيبت

العقل ووضعت القتل هدفاً للوصول إلى غاياتها، لكن غاياتها نحن للأسف، ونحن لم نعد نستحق تلك الإنسانية..

أسمعه بكل جوارحي، بقلبي وعقلي وعينيّ، بصمتي الذي ناب عني في الكلام، ليطلق لحروفه العنان ويصف داخلي، تتقارب أفكارنا، ولا عجب، فدائماً من علامات الجذب، التوافق في الرؤى والأفكار، أسرح بفكري الشديد وتصعد روحي سفينة حربية قديمة بلا أشرعة تشق طريقها في محيطها، في طريق الظلمات بين أمواج الموت والحياة.

وتسمع صرخات استغاثة على بعد أميال وتلج في عتمة حيث تستعرض المدن المستباحة وجثثاً وهياكل لأناس كانوا بها سكاناً، وصوراً لأرامل وأيتام، وقصص الأمهات اللواتي فقدن فلذات أكبادهن وأزهاراً ليست من نور، كأنها أجنحة غربان، وحطام بهذا المكان، الفساد له رائحة، رائحة جثث متفسخة، وهناك وجوه سوداء كتب على جبين كل منها تجار البلاد، وذاك رجل ببطنه المنتفخة يسيل من فمه شلال من الدم وتنزلق منه أرواح الطفولة المتشردة والمعذبة وكأنها قد وصلت إلى البرزخ...

يا إلهي، هب لي من لدنك رحمة وسلاماً، هكذا الدنيا تتحول بوهلة لبرزخ تباع وتخان فيه الأوطان، يهيج المحيط وتتعالى الأمواج وتلتهم كل الصور على جدار الظلمات، فيغمرنا الطوفان، فنحن نحتاج إلى كل المعجزات وإلا هلكت الأرواح، اللهم امنحنا صبر أيوب وعصا موسى وقوة سليمان، فالبلاد ابتلعها الطوفان، واعتلى نور الكون الظلام...

ـ سعاد أين وصلت ؟..
ـ اعتذر أنا معك.
ـ ما الذي يشغل بالك ؟
ابتسم بألم...
ـ ما الذي لا يشغل بالي؟.
ـ فنجان قهوتك قد يبرد وأنت شاردة الفكر.
ـ ليت قلوبنا تفتر كهذه القهوة ونحتسي مرارة الحياة على مضض، لقد تعبنا من اللوعات يا أحمد. تعبنا.
ـ لا عليك، سأطلب من النادل أن يجدد لنا القهوة وآمل ألا نجدد جراحنا معها.
ويتابع...
ـ حدثيني عن البلد، سمعت الكثير عنها، لكن يظل القابع في قلب الحدث أكثر قدرة على التصوير ونقل الحقيقة.
ـ كيف لي أن أبدأ، فالمرارات كثيرة وما زالت خناجر الفاجعة مغموسة في قلبي؟ هل تعتقد أني سأكون حيادية وموضوعية في نقل ما حدث؟ فأنا أتجرع سم الذكريات في كل لحظة وتزداد أحقادي وأتمنى لو أن لي قلب ذئب أو وحش قادر على أن ينقض على فريسته فيسلبها الروح ويمزق الجسد.
ـ ما بالك ؟ .. للتو كنا نتحدث عن بشاعة البشر ووحشيتهم، أراك تظهرين الصورة نفسها.

- لا أريد أن أبرر لك وحشيتي لأنها تستظل بظل وتحت حلم لو، ما الفائدة وأنت تنعي ضعفي البشري، فأنا لا أمتلك سوى ضعفي ومرارة ذكرياتي وصمتي الذي سوف أهبه لك.

- سمعت الكثير والكثير وتألمت وعلى الرغم من البعد. تمنيت لو أستطيع أن أكون معك، أنا أيضاً لا أبرر ذنبي، فأنت تعلمين كما أعلم أني منفي بغير إرادتي، أنت من حكم علي بالنفي خارج وطنين، الوطن الأول قلبك، والوطن الثاني أرضي وبيتي والأهل وكلكم الرقة، والرقة رغم الغياب تسكنني، مذ غادرتها وأنا أجتر مرارة غربتي.

لا عتاب بيننا، كلانا غير مذنب، ما بيننا قلوب مبعثرة، على ساحات الحرب، ولكن رغم الغياب ورغم البعد، ورغم مازالت تنبض، أنا على يقين أن قلبك لا يزال كما الماضي ينبض، لا أطلب منك ذاك الحب فمن العار أن أشحذ حباً، كل ما أبتغيه أن أكون معك عوناً وسنداً، أكفر عن ذنب ليس ذنبي، أخفف من وحشة الغربة التي أكلت عمري ونخرت عظامي، لأني عانيت ما عانيت، لا بد أن أكون عوناً لك.

- غيرتني الحياة كثيراً، فرضت علي أقنعة. أرغمتني على وضعها كستار أواري خلفه ضعفي وأنوثتي، فالعالم لا يرحم.

يعود ذاك الصمت إلى عباراتي، فأطبق فمي ولا أتكلم، ينسل هذا الصمت من عمق أحشائي من بحر الألم والغضب، ليت غضبي فقط يتكلم، لأحدثت ثورة وانقلبت على عالمي وحطمت دساتير الحياة وأصنام المبادئ والشعارات. نحن لسنا موجودين، غائبين

مشردين، نحن كذبة، مجرد كذبة تفوهت بها الحياة، نحن إشاعات العصر الظالم والمستبد، نحن مجرد روايات تكتب، نحن أجساد تجلد وتتعذب في فناء الجحيم.

- حدثيني كيف توفي والدك، قبل الأحداث الرهيبة ؟

- لماذا تصر أن تدخل عالمي وأنا رتبت كل شيء؟ كل شيء بات مرتباً، رتبت نكباتي وأحزاني والفجائع، وأنام بقلب مسهد وهو قلب لم يذنب، فقط القدر سماه شقياً، وبخيوط الذكريات تراه متعلقاً لا يرضى أن يفلت منه أي خيط. في كل مساء تجذبه أراجيح الذكريات معذبة لقلب طفولي لا يعرف أن يحب إلا بصدق، ولا يعرف كيف يكذب...

- لا ترغميني على الاعتذار في كل مرة أطلب منك فيها الحديث، لماذا أنت تتحدثين الكلمات وتعقدين موثقاً مع الصمت؟ سترتاح جراحك إذا ما شاركتني بعض الحزن، لا ضرر أن أخفف عنك، فأنا أرى بعينيك حجم الحزن، ولا تفرضي علي منفى آخر وأنا بقربك.

- لا عليك.

لطالما اعتقدت أن الجبال لا تتهاوى وأنها تظل شامخة مهما حدث ولا يجوز لقوانين الطبيعة أن تتحداها فمن غير المعقول أفول الجبال.

لم يكن مريضاً ولم يكن يعاني من شيء، عندما عاد صباحاً من عمله لأخذ بعض الأوراق، التي يحتاج إليها في العمل وعندها سقط وهو واقف عند باب سيارته ليركض جارنا أبو حسن منادياً باسمه

"شريف " كصرخة وضعت حداً للحياة، نعم أنهت حياته، حملوه بسيارته إلى تلك المشفى التي دائماً يدخلها الأحبة ولا يخرجون إلا جنازات تعلوها صرخات النواح والهلاهل التي ترددها حناجر النساء.

"هلا بريح الشمال الجاي منكم، عزاز وما نقطع الأمل منكم، والله كذب من قال واحنا نجوز عنكم، أمس طوارشكم مرت علي، هلا بمكتوب جاني من أهلي، بكيت وهلن دموعي على أهلي، هذا أنت يا دنيا حرمتيني من أهلي، سكنت العزب غصبن علي ..

أن جيت لدار خلاني، حنيت حنين النوق ع الحيران حنيت، شبيك يا مجلس الخلا غليت، عقب ما كان هرجك للضحى... "

فقدت السند الذي لطالما أمدني بالأمان والحب، فذلك الوجه القاسي يخفي خلفه فيضاً من حنان، عندما ينصح فهو دائماً مصيب، كأنه وضع معادلة لا تقبل إلا اليقين والحتمية الواضحة من دون شك.

لم يكن فراقاً بقدر ما كان جرحاً تألمت طويلاً حتى تماثلت للشفاء منه، صدمة قصمت ظهر إخوتي الشباب وأحالت أمي من بنك الحياة إلى بنك التقاعد والمعاشات، شحب جمالها ومازالت شابة مشرقة مفعمة بالحيوية، تغضب إذا أخطأنا، فبدأت ملامح الفتنة والرونق الذي يكسو ملامح وجهها تتلاشى، فهي أيضاً من الزنابق التي تلتحف أوراقها عند المساء لتغفو على أنين جرحها..

كل فرد فينا رسم طريقه. خالد سافر إلى السعودية وطلب من والدتي أن تختار له زوجة على ذوقها، وبعث إليها أن تسافر إليه واستقر وأسس عملاً له وكون أسرة جميلة، وبعد الأحداث سافرت أمي للعيش معه.

أما عمر فلم يكمل جامعته ووصل إلى السنة الثالثة علوم سياسية وفي بداية الأحداث هاجر إلى السويد ليتابع دراسته خارج القطر، كان السفر حلمه وقد تحقق هذا الحلم بطريقة يسيرة لم يعان من مخاطر البحر، فقد هاجر بشكل قانوني، حيث تم استقدامه إلى السويد عن طريق جماعة من أصدقائه الصحفيين.

أما بالنسبة لبتول، فقد تزوجت وهي مستقرة بتركيا الآن وآخر العنقود هيثم ... وأعود لصمتي لتأخذ الدموع مجراها على وجنتيّ، كسفينة لا تعرف لها مرسى.

ـ أنا أعتذر فتحت جراحك، بلغني خبر وفاته وأسفت لذلك، أرجوك لا تحزني أكثر، لقد أرهقنا الحزن حتى بات الحزن فينا كالماء والهواء لا نعيش من دونهما ولا نحيا.

لم أستطع أن أكمل الحديث الذي بدأنا، ولم ينته، فدائماً المرارة تحول بيننا وتجبرنا أن نعود للصمت، ذلك الصمت الذي يفسر وحده كل الإشاعات ويختصر بشاعة العالم، ببضع صور تزور خيالك لتحول داخلك إلى كهف مظلم تعرف بدايته ولا نهاية له تدرك.

يا آخر الرجال العابرين حدود الروح، يا أول الرجال العابرين إلى صباحي، سنكتفي بجرعات الألم التي تعاطيناها في اللقاء الذي

اتخذ مكاناً بين الشمس والأرض وينتهي اللقاء ونفترق، وأجدني أردد:

" إلى تلك القلاع التي تتهاوى في عمق روحي، سأعزف لحن الخراب الأخير وأبني صروحي على حطامك، بحسبنا الله ونعم الوكيل".

أعود بذاكرتي المشوشة إلى اللحظات التي تموت فيها القلوب لأنها تجاوزت عامها الألف، فالقلوب لها عمر ومنتهى.

في غمرة انشغالي بعد ظهر يوم جمعة، الجمعة التي تحولت من عيد للمسلمين بفضل تطرفهم إلى عيد للمجانين، تتهادى إلى طرقات هادئة وسرعان ما تتحول لمياجن تريد خلع الباب وقذفه من مكانه، أهرع من مكاني كالمجنونة لأصرخ من الطارق؟

- افتحي يا سعاد أنا هيثم...

أسرع إلى الباب أريد اجتثاثه من إطاره لأرى ما الحدث.

- هيثم، ما بك ؟

كان هيثم يقف بالباب وتسنده فتاة وشاب. يمسكان بيده ويدخلان به إلى الداخل، وكان وجهه أصفر شاحباً وعلى ثيابه أثر دماء، وكانت الفتاة والشاب يهدئان من روعي قائلان : لا تخافي إنه بخير. وأنا أصرخ :أي خير وهو يسبح بالدماء؟.

يتسابقان ليبررا لي ما حدث له، بأنهم كانوا يعبرون إحدى الحواري التي نشبت بها اشتباكات على إثر تظاهرات اليوم، وقد أصابه طلق طائش في قدمه ولا داعي للقلق.

يجلسانه على السرير وهو صامت يتألم من دون أن يتأوه أو يحرك شفاهه. لا أنسى ضوء عينيه وهو يجول بهما، وهما تنزفان ألماً ليعاود إغلاقهما ويختفي ذلك البريق الفاتن خلف الجفون وكأن الحسن في عينيه جرم يحاسب عليه صاحبهما، ما أجمل عينيه وما أجمله، تتحرك مشاعر الأنثى الحانية والأم والأخت لتنهمر الدموع على وجنتي، وأعض على برطمي بحسرة وأنا أرتب تتابع الأحداث وأحاول استيعاب ما يحدث ولكن... ؟

أين المفر وكان القدر يختار الأحداث والشخصيات والنهايات ويختار لنا الواقع الذي لا نرضاه والذي اختارنا ولم نختره...

أفطن أنني لم أنتبه لوجود ضيفتنا وأعتذر منها قائلة :

ـ أنا آسفة، الموقف وترني، ولم أقم بواجب الترحيب.

لتنطق تلك الفتاة السمراء الفاتنة بقوامها الممشوق كنخلة في جزيرة مترامية الأطراف وعيناها كقصيدة واثقة ونظراتها كسهام تصيب الهدف من دون تردد.

ـ بل نحن الذي يجب أن نعتذر، كنا نتمنى لو أن زيارتنا جاءت في غير هذا الظرف الحرج، أنا طيف.

تمد يدها لتصافحني، وتشير بعينيها إلى الشاب الآخر وتقول :إنه ثامر، نحن زملاء هيثم في الجامعة .

يمد ثامر يده ويصافحني بخجل.

ـ أهلاً بكم.

وأهم بإحضار كرسيين ليجلسا عليه، فيستغلان انصرافي ليتهامسا بموضوع ما، وأي موضوع مهما كان سراً، فهو واضح للعيان.

ـ تفضلا كي لا يطول بكما الوقوف وأنتما متعبان على ما يبدو.

لترد علي تلك الماجدة:

ـ شكراً ونعتذر لأننا أتعبناك معنا.

ـ لا عليك ... ما يهمني الآن كيف نعالج هيثم، لماذا لم تذهبا به إلى المستشفى ؟

قلت ذلك وأنا أعلم ما الإجابة، ولكن لأضع حداً للشك.

يتبادلان النظرات بتوجس وريبة ويصمتان وينظران إلى هيثم وهو مطبق الجفنين على ألم...

ـ هل هناك طبيب يقبل أن يحضر إلى المنزل لانتزاع الرصاصة من قدمه؟

اصرخ: لا مجال للصمت والتفكير، سيصفى دمه ... لا جواب، حسناً، أنا سأتصرف.

أتجه نحو غرفتي وهما يقفان بذهول خشية أن أقوم بعمل يفسد سخافاتهم الفاسدة أصلاً، أمسك بهاتفي، وأنا أتذكر رقم طبيبي النسائي الدكتور محمد، علني أستدعيه فيحضر، وقد احتفظت برقمه خلال زيارتي النادرة لعنده .أضغط زر الاتصال ليأتي صوته من بعيد: أهلاً سعاد...

ـ أعتذر دكتور على الإزعاج، كيف حالك ؟

ـ الحمد لله بخير.

ـ دكتور أنا وضعي سيئ جداً بحيث أني لا أستطيع ترك السرير مطلقاً، فهل بالإمكان حضورك لفحصي..

ـ ماذا تعانين ؟

ـ نزف شديد لا يرضى أن يتوقف.

ـ أوو، نزف، ما السبب ؟

ـ عندما تأتي سأشرح لك، لا أستطيع الشرح على الهاتف.

ـ حسناً حسناً، أعطني العنوان.

ما هي إلا دقائق، لم تتجاوز العشرين حتى عاود الاتصال ليستفسر من جديد عن البيت وفي أي مدخل، وما رقم الشقة. أمده بالمعلومات، وأقف عند الباب قلقة كمحاولة مني لقتل الوقت الذي صار كأنه دهر، وكذلك القلق باد على وجهي ثامر وطيف وأسأل الله اللطف، أسمع وقع خطاه. أمسك بمقبض الباب. أفتحه قبل أن يطرقه، يتفاجأ بي، فيتبين أن الرواية ما هي إلا كذبة، حيث بدت على وجهه نظرات الريبة والشك.

ـ آسفة دكتور. ادخل لا وقت لدينا .

ـ ما القصة يا سعاد ؟

أمضي أمامه وهو يتبعني بخطى مرتبكة حتى دلفنا إلى الغرفة ورأى ما رأى، حيث المشهد يشرح نفسه.

يفتح حقيبته ليخرج السماعة ويقيس ضغطه ويقول إن حالته حرجة، ويجب ألا يفقد الوعي.

يرفع الغطاء عن قدمه ليفحصها قائلاً بعد ثوان:

ـ الرصاصة في بطن قدمه. إنها لم تصل، ولم تؤذ العظم هذا جيد.

ـ سعاد.
ـ نعم دكتور.
ـ اغلي لي ماء لتعقيم الأدوات.
ـ وأنت أيها الشاب إلى أقرب صيدلية، وأحضر لي خيطاً للجراحة والقطن والشاش على جناح السرعة.
يركض ثامر من دون وجهة معينة، وأنا أتجه إلى المطبخ لغلي الماء. أعود مسرعة. طيف تحبس عبرتها في عينيها وتضع يدها على فمها لأدرك أن هذه الفتاة متعلقة بهيثم من نظراتها، تسرع لتمسك يده وهي جالسة على السرير إلى جانب رأسه توشوشه فيبتسم وكأنها بلسم برأت جراحه بمرورها، يثرثر الطبيب قائلاً:
ـ ليس من عادتي حمل معدات الجراحة والعمليات فهو اختصاص المشفى، ولكن على ما يبدو بات من الضروري حملها من الآن فصاعداً، فقد نتعرض لمواقف محرجة.
يبتسم ابتسامة خبيثة، وأنا أعقد حاجبيّ لأرد عليه :
ـ دكتور الوضع لا يحتمل أي استخفاف، نحن نمضي إلى الهلاك وبتنا على حافة الهاوية .
ـ أستاذة سعاد .هناك أشياء أقوى من قوانين الطبيعة، تحدث لتقلب موازيين الأشياء والمفاهيم فهذا الجيل لا يؤمن بخبز الفتات . يريد أن يمتلك القمح والمطحنة والفرن وأن يكون هو الطاحن والفران ومن ثمّ هو الزارع الحاصد، فنحن يا عزيزتي غلبنا الشقاء ورضينا بما منحنا الإقطاعي من الشعير ونحن من زرع وحصد القمح وذهب

إلى بيت الإقطاعي، ونحن من أكل رغيف خبز الشعير الأسمر بطيب خاطر وما اشتكينا، وهذا الواقع تغير.

- لا ... هذا الكلام غير صحيح.

يرمقني بنظرة وتتبعه طيف بنظرة مثلها، فأصمت خجلاً من كونه ضيفي وجاء ليسعف أخي، وأنا أدخل معه في جدال لن يغير حقيقة أن هذا الشاب يحتاج لتلك الأيادي الماهرة لتنتزع مصدر الألم، فأجيب كالمعتذرة :

- لا عليك دكتور، تابع عملك .. نحن متوترون ولا نعي ما نتحدث به، أنا سأصنع لك القهوة. أكيد سادة.

كانت ساعات قاسية ومؤلمة. انقبض صدري من قسوة المشهد وفي الوقت نفسه تسرب الخوف لقلبي، إن هذا الشباب المفعم بالحماس سيجرنا عنوة إلى الجحيم وأؤمن بأن الخسارات ستكون وافرة في الأيام القادمة.

يعود ثامر بمتطلبات الطبيب فتتزايد دقات قلبي خوفاً على هيثم، يطالبنا الطبيب بمغادرة الغرفة أنا وطيف قائلاً:

- أعتقد أن الجنس الناعم لن يحتمل قسوتي على هذا الشاب الجميل ولا سيما إنه يحتل مقاماً رفيعاً في القلوب . سنقوم بهذا العمل أنا وصديقي ثامر، أرجو أن تنتظرا خارجاً.

أغادر ممسكة بيد طيف مخففة عنها، ولا أعلم من يخفف عني، ادعو الله بقلب خاشع ملح على استجداء عطفه وكرمه، ويعلو صوتي : يا رب ساعد هيثم.

يتهادى إلى مسامعي تأوهات هيثم المنقبضة، فيزداد ألمي ويعتصرني قلبي مع كل آه، وأرى طيف تبكي بحرقة قلب، فأصمت وأخفف عنها ساعات حرجة ومؤلمة، وقلوب منقبضة بعد ساعة ونصف يفتح ثامر الباب يحمل بيده معدات الطبيب في صينية ويدخل بها إلى الحمام وأسرع إلى الغرفة ليستوقفني الطبيب قائلاً:

- دعيه يرتاح لقد عانى كثيراً.

- دكتور ... ألقي نظرة بصمت. أعدك.

أشعر بحرارة جسد طيف وأنفاسها اللاهثة خلفي، فتسبقني لتلقي نظرة على الملاك النائم المنهك من التعب، ونرجع إلى الخلف إكراماً لطلب الطبيب..

أحادث الطبيب بحرارة وامتنان.

- دكتور محمد لا أعرف كيف أشكرك، أنا مدينة لك .

- أستغفر الله، نحن في ظروف تستوجب أن نقوم بكل ما يقدرنا الله عليه من دون أي منّة وأنا سعيد لكسبي ثقتكم هذه، وأرجو من الله التوفيق للجميع.

أرافقه للباب وجوارحي كلها ملتهبة نازفة خائفة.

- أستاذة سعاد، لو تطورت حالته لا سمح الله اتصلي بي ولا تترددي في أي وقت، مفهوم.

- حاضر دكتور سأفعل، ولك شكري الجزيل.

أودعه مع رصد باب الخيبة وربما كل الخيبات في ظل ما نعاني ونحن مقبلون على حياة التعساء. نسمع قصص وحكايا دارت في شوارع تلك المدينة الحالمة والمسالمة تقشعر لها الأبدان من الظالم

ومن المظلوم، الأمران سيان، الخراب يتهاوى على معالمها، سحابة من الضباب تغشاها عينا قلبي، تراها فتشهق جوارحي لها.
تتباين الأحداث بين مد وجزر ونمني أنفسنا أن هذه المدينة التي تأوي مئات الألوف من النازحين الذين قصدوها هرباً من الموت قد وفدت إليها تلك القلوب التي افتقدت الأمان وطابت لها الحياة في كنف مدينة تعشق الزوار وتحتفي بالغرباء وهذا عهد الكرام، من لا يعشقها وكل من وطأ ثراها ازداد عشقاً لها.

في الثالث من آذار 2013 م...
فجر لا يشبه أي فجر في حياتي له مذاق الموت المحترف، له مخالب وأنياب . لطالما كان الفجر مسرى النفس للسلام إلا هذا الفجر كان مسرى الأقدام إلى الظلام. في ذلك اليوم المشؤوم تحولت تلك الناعسة على زند الفرات إلى لبوة مجروحة تحاول افتراس كل من يحاول الاقتراب منها، تتقيأ ألمها عدوانية وتوجساً من بسطاء ساكنيها، تستيقظ على فجر لم ينجل بحلوله الظلام، بل أسدل سطوته على المنازل والأرواح، أسمع زخ الرصاص وأكذب مسامعي، ليس هذا الخراب في مدينتي ..الرقة هي الحضن الذي لملم الجراح لأغلب الوافدين بحثاً عن الأمان، بعد أفول الدهشة والفزع، ألملم خيباتي لأعلن رحلة الشقاء.
نحن من عهد الأمان وعشق الاستقرار، نحن شعب لا يعرف الفراق ويحيا بعيداً عن الفرات، أين المضي يا رقة الروح وهوى النفس المُستباح؟
كيف أمضي ؟ . وبيد أي غادر أستودعك..

يا رقتي أستودعك اللّه.

لم تكن ثورة، بل ثروة، سرقة ونهب لمقدرات ورزق البلاد، وتجويع الشعب، وإبراز العضلات لأولئك الذين يعانون من عقد النقص، وكمحاولة لتعويض حرمانهم وضعفهم للسلطة كزعماء.

سيخجل التاريخ بكم ولو كان جيفارا في ساحات القتال لأدبر آسفاً وقال :ما هكذا تصنع الثورات.حتى هتلر عندما سحق العالم بظلمه أعلن قائلاً: إن أكثر الناس الذين احتقرتهم في حياتي أولئك الذين ساعدوني على احتلال أوطانهم. وهو بهذا القول حقر الخائن والخيانات.

بفضل ثورتكم نحن الآن غرباء .نجوب أصقاع الأرض بحثاً عن ذواتنا. نريد بديلاً للوطن، ذلك الحلم نحمله على أكتافنا، تعبنا رحيلاً وارتحالاً، وما تعب الوطن وهو يحاول وقف نزيف الدم.

ما ملت تلك البواخر تعبر بنا من مرسى لآخر، تجتر أحزاننا ونحن كالغارق بوهم الغياب وحلم العودة مع السحاب إلى ذلك الوطن، لم أغادرها أكثر من أسبوعين فقلبي يضيق به الفراق، أعشقها رغم ذلك الخراب، عندما أخبرني هيثم أن الماء عاد إلى المنزل أسرعت ألملم أشيائي لأعود تحت سخط أمي وقولها: هل تريدين أن تذهبي لتموتي؟ أنت حرة بنفسك ولكن ما ذنب هذا الطفل؟

وأرد عليها: هل أرواحنا أغلى من أرواح الذين رحلوا وشربت الأرض دماءهم الطاهرة ؟، وهل هي أغلى من أرواح الذين سيرحلون دائماً، هانحن نهيم على وجوهنا في الأرض عابثين خائفين .لا هدف لنا.

ترمقني بتلك النظرة التي تشعرني بالذنب، ما ذنب أمي؟.
هي مثلي لا حلم لها غير بيت تحتضن به آلامها، وتحتفظ بصور المغادرين لربوع الحياة، الخالدين في ربوع النفس، فما الحياة غير أمل ووعد باللقاء بعد انقضاء الحلم.
يقتلني صمتها، ليتها صرخت بي، نهرتني، صفعتني . قالت لي ما أوقحك، أنت قليلة الأدب...
لكنها لم تفعل، تركتني لعقاب نفسي وكأن عقابي صار قاسياً حد الوجع، لكني لم أعدل عن قراري، اتصلت بصاحب تكسي في المنطقة التي نزحنا إليها ليعيدني إلى المدينة، أو إلى البلد بلهجة أهل الريف، فالرقة هي البلد الأمين الذي يرتادونه لقضاء احتياجاتهم كلما تطلب الأمر.
أدخلها ولكن هذه المرة لست الأميرة العباسية التي تعبر الجسر على هودج الكبرياء والعزة، أدخلها مجروحة منكسرة ذليلة النفس ومتعثرة بالدموع وحاقدة. مشاعر مضطربة ومتناقضة تستقرئ الخراب وتستقبل تلك الصور المؤلمة رغم ما شاهدته على شاشات التلفاز كأن الواقع مؤلما أكثر، وقلبي مع كل مشهد يشهق، وجوه وسيارات وأعلام ... هذا ليس علم وطني، وهذه الوجوه من أي بقاع الأرض جاءت تحتل أرضي؟ الشوارع فارغة لا ازدحام، صوت الموت فقط ما أسمعه، وشخطات سياراتهم وصوت الطيران.
هل أنا أحلم؟ نعم أنا في كابوس مرعب، لا بد أن أستيقظ منه.

تتفجر في داخلي براكين الأحقاد ولا أستطيع منع نفسي من الصراخ والشتم، نعم أشتم ذاك الخراب، ومن جاء بالخراب، ومن صنع الخراب على أنقاض أحلامنا، أنا التي لم تعرف يوماً كيف تشتم.

يرمقني الوليد بعينيه البريئتين مندهشاً ويتابعني بهما، وأنا أتفقد تلك الصورة الجميلة في ذاكرتي، مدرستي أول النكبات بعد الحرب، أصرخ بها .. انهضي لا تموتي لإرادتهم، عودي إلى الحياة ولا تسمعني.

كم عمر الغياب بيننا، أسبوعان ؟، هل بهذه الأيام تموت الأوطان؟ عارٌ أن تموتي..

لكن الصمت يرد على كل مطالبي ورجاءاتي ووجعي.

لم أذهب إلى بيتي لأن المفاتيح عند هيثم، فقررت المرور ببيت أهلي لآخذه، حال نزولي استقبلوني بالصراخ، ما جاء بك ؟ "الدنيا خربانة".

لا كلمات ... لا جواب، قلبي مثقل بالهم، أريد الجلوس وحدي لأبكي مصابي الجلل، أنا الثكلى كما مدينتي، أنا لا أحتاج فقط للدموع، أحتاج لخدود من معدن وعينين من زجاج ومعابر تخرج من داخلي لهيب الوجع وتقذف عني الحمم، يحاول هيثم إدخالي وأنا رافضة محاولاته الفاشلة.

- سأعطيك المفتاح لكن الحارة خطرة، تعرفين أن البيت لا يبعد سوى أميال عن الفرقة " 17"

- ليس مهماً.

- ما المهم، أن تظلي عبدة لذلك النظام.
أرمقه بنظرة لا تفسير لها سوى أنني أهوى الافتراس، يضحك أحد أبناء عمومتي هازئاً بكلامي وهنا انفجر بداخلي ذلك البركان .
- يا قتلة يا مجرمين، يا سفلة، من صنع منك رجلاً وأنت مجرد حشرة؟ من أنتم لتغيروا مصير ثلاثمئة ألف نسمة بجنونكم ؟ من أنتم ؟.
لم أشعر إلا ويد هيثم تصفعني طالباً مني الصمت، أشد يد ابني وأسرع باتجاه بيتي، ولم تتوقف دموع نكبتي في ذلك اليوم، وأنا أقارن بين أمس وهذا اليوم المسرف في الحزن البشع بكل تفاصيله.
جلسنا أنا وطفلي لا رغبة لنا في شيء، كانت المشاهد قاسية جداً عليه، وما عرفت كيف أداوي وجعه، مازال طفلاً على كل ذلك الهم، أريد أن أتماسك كي لا أجرحه أكثر، لكني أفشل، لا سلاح عندي لاستنكار الواقع غير الدمع، ما أضعفني أمام هذا الوجع.
يمسح بكفيه الصغيرتين دمعي ويخفف عني حين يقول:
- ماما عندما أصبح رجلاً لن أسمح لأحد أن يبكيك.
ينفطر قلبي فيزداد رثائي ويتضاعف ألمي. أحضنه، هو أماني تحت مظلة الموت وتحت سطوة الخراب، وتحت رحمة الظالم.
أيام، ما أنا من ذكراها، نذكرها كالعلقم ، بل كسمّ يسري في خلايا جسدي إلى هذه اللحظة، أنوح وهدير الطائرات يسكت وجعي، اقصفي وزيدي الدمار دماراً.

لم يعد هناك ما يثلج قلبي، أدعو اللّه إذا كنت سأموت أن أموت مع طفلي، ألا يموت أحدنا ويبقى الآخر وحيداً يواجه نكبات الحياة، وإرادة اللّه فوق كل إرادة...

أراد لنا الحياة لنشقى كما الأشقياء في بلدي.

المعالم الشامخة، المحببة لنفسي، تتلاشى الواحدة تلو الأخرى، أبرر الخراب باسم الدفاع، وأستنكر الخراب باسم الحرية، فالقلب وما يهوى.

هذا هواي .. هذا هواي .. وهذا أنا

أحب الوطن كما كان .. شتلة ريحان

على مجرى الفرات.

سمعت فتح الباب في آخر الليل، إنه هيثم من كل بد لم أتحرك، بقيت محتضنة طفلي ومتظاهرة بالنوم، ومن أين سيأتي النوم يأتي إلى قلبي.؟.

طرق الباب علي بهدوء، لم أتحرك، نادى من خلف الباب:

- سعاد..

لم أستجب للنداء.

سمعت وقع خطاه تبتعد باتجاه غرفة الجلوس، ثم تهادى لمسامعي صوت التلفاز، أفسر تصرفاته وأعلم تماماً ما يشعر به، لكنني لست راضية، ولو أنه ليس أخي ربما قتلته، أقول قتلته مجرد تعبير عن غضبي، لو أني أستطيع القتل لقتلت الظلم وانتهى الأمر.

مر الليل مثقلاً بهمومي وأشباح الخراب، وقلبي مثقل به، وبكل ذكرى تمر بذاكرتي، مع أول الفجر بدأ تبادل إطلاق النار مع رجال الفرقة (17) .

حولوا الفجر لمواعيد تلتقي فيها المدافع والرصاص مع الموت الذي يلتهم الأرواح بنهم لأن تلك الشتلات الجميلة تفتح شهية الموت، فيلتهم منها ما استبسل، ينقبض صدري ورغم حقدي عليهم، أعلم أن حصاد الأرواح من الطرفين مؤلم وهم في النهاية أبناء بلدي، لكنني أعاود التراجع عن هذه الفكرة وأقول : لا ليس مني، من يحارب ضد بلادي.

يتناقل الناس عند الصباح أخبار ليلة أمس والحصيلة من الأرواح. كأن الموت صار قهوة الصباح على صوت" البم " وقبلها كان صباح فيروز وفنجان القهوة يمنح النفس الطمأنينة ويزيح عنها الهم والعناء فتنسى أي كدر معها.

كل شيء تغير، أكثر ما كان يميز تلك الفترة، كثرة الوفيات والتعازي، فالنساء ما إن تنتهي من مأتم حتى تذهب إلى مأتم آخر، لكن من يعيد من رحل؟.ومن يعوض تلك الخسارات؟ ماتت أزهار بلادي ونحن نتحسر، فقط نتحسر.

مناظر" الدوشكات" في الشوارع أصبح مألوفاً ولعبة الأطفال صارت الحرب، والمدارس مستهدفة ولا داع للعلم، بدأت الأمية تتفشى على الرغم من المحاولات البائسة لعودة بعض المدارس للخدمة وعلى الرغم من المحاولات غير المجدية في إقناع الأهالي لإرسال أطفالهم والإدعاء أن الوضع طبيعي والحياة مستمرة.

تقصف إحدى المدارس في الثامنة صباحاً عند دخول الطلاب والاصطفاف كالعادة بطوابيرهم المنتظمة لدخول فصولهم، فتحدث الكارثة..

الخيانات .. هي التي قادت أرواحنا للتهلكة.

مهما حاولت الشرح والتفصيل والتصوير من دون جدوى، الخيانة ذلك الخنجر المسموم الذي يغرس في الظهر وأنت تنظر لعدوك أمامك متناسياً أن العدو يأتي أيضاً من الخلف ليطعنك، بل ليقتلك.

يعينون أمنيين لحماية المدينة، تضم قياديين منهم وشرطة ومحكمة تشريعية للنظر في القضايا العامة من بعض القضاة والحقوقيين المتطوعين معهم ونبدأ سماع أحكام وفتاوى لأول مرة تطرق مسامعنا وتذهل تفكيرنا، فقد كنا يوماً في نظرهم كفرة، والآن الحمد لله على نعمة الإسلام.

والمضحك أن حماة البلد أولئك الأمنيين هم مجموعة لصوص في السابق وتجار سلاح وتبغ فكيف يصبح حاميها حراميها؟ أضحك أم أبكي؟ تستمر المهزلة بجر الناس وسجنهم والتصفيات الشخصية والانتقامات الفردية والفتاوى وسرقة منحات الهلال الأحمر والانقسامات بين أولئك الأحرار والمرتزقة، ترهات، سخافات لا تتوقف ولا تنتهي.

قلوب مستعرة، وعيون محدقة بما يؤول إليه حال البلاد، تزداد النزاعات بينهم وبين جبهة النصرة وتبدأ الانقسامات وتنشق فصائل عن الفصيل الأكبر وتتعدد الفصائل والمسميات والنزاعات،

ويبدؤون التضييق على البلاد والعباد، يقف أولئك الذين يدعون أنهم أبناء المدينة بلا حول ولا قوة يتجرعون السم الذي طبخوه بطيب خاطر، حيث ينفذون أوامر أولئك المرتزقة الذين بات لهم الحق بالتحكم بنسائهم وبناتهم وهم فقط ينظرون.

صراعات وتحديات من دون منفعة ولا جدوى.

يبدؤون بتنفيذ قراراتهم والناس تستسلم لها خوفاً.

تتزايد أعداد ما يسمونهم بالمهاجرين، ترى مرتزقة من كل أصقاع الأرض حتى من السنغال، كان أكثرهم في أول الأمر سعوديين وتوانسة وحتى من الصين وألمانيا والنمسا والشيشان، من كل مكان جاؤوا لينشروا الإسلام. كنا في حالة جاهلية وهم جاؤوا لنشر الإسلام، وأكثر تلك المواقف ظرافة ... حدثني به صاحب سيارة أجرة حيث قال : صعد معي شاب منهم لا يتقن العربية بطلاقة وقال لي بلهجة المكسرة : خذني إلى القدس.

فاجأني طلبه، وأعدت عليه السؤال..

ـ لو سمحت إلى أين ؟

فقال : خذني إلى القدس.

صمت ولم أعرف بماذا أرد.

كيف أذهب به إلى القدس .. أين القدس؟.

يتابع:

ـ القدس هناك خلف صوامع الحبوب الشاهقة.

ـ اممم، الآن فهمت، القدس هي الفرقة (17) .

أوهموا كثيراً منهم أن الجهاد من أجل استعادة القدس فيفخخونهم ويرسلون بهم إلى الموت، وأن دماغهم تم غسله ووضع التبن بدلاً منه، فلتذهب إلى الجحيم أيها الأحمق وليس فقط إلى القدس.
سافرت إلى الدير بعمل لأجل الجامعة، أذكر تماماً تلك المعاناة في السفر وعدد الحواجز التي تدقق بالبيانات، حتى التافه منها وضرورة وجود" محرم "مع كل امرأة ما يضطرنا للاحتماء بأي رجل يحمل بطاقة عائلية باسم زوجته أو ابنته إذا كان عنده ابنة، ومن هذه القصص جرى الكثير، منها ما يدعو للضحك ومنها ما يقود أصحابها إلى محاكمتهم بتهمة الكذب والتستر على هروب النساء خارج حدود الولاية كما يسمونها، بعد عبور حاجز عياش حيث يرفرف العلم الوطني شاهقاً ويرف قلبي معه، أريد أن أطاله وأقبله، علمي علم الوطن، نسيت برؤيته صدى الآلام، نسيت تعبي من الرقة إلى الدير برؤية رفات الوطن تلك البقعة الجغرافية التي لا تتجاوز10٪ من مساحة دير الزور، سابقاً وتضم منطقتين هما الجورة والقصور والمطار فقط، وباقي الدير تحت سيطرة المرتزقة.
حدثتها عندما أسرت قلبي:
"يا دير قلبي...
آتيك لأنك جزء من وطني.
ولأجلك يباح دمي..
ومن دونك ينقصني عضو يكملني"...
هناك تاريخ لعشق بيننا، تحدثنا سراً عن هذا العشق والعيون حذرة ألا تشي بها الناظرين، فهذه التفاصيل مدفونة في قلبينا، مرت

السيارة في شوارعها، أراقبها بقلب مشتاق يحترق، لا أريد أن نفترق ولكن ما الفائدة إذا كانت المدينتين تنزف الجراح؟ وصلنا مبنى رئاسة الجامعة، طلبت مقابلة رئيس فرع الجامعة وبعد نصف ساعة تقريباً دخلت مكتبه، استقبلني بحرارة وأبدى أسفه لما آل إليه وضع البلاد والرقة بالذات، شرحت له سبب زيارتي، وأن بحوزتي علامات للطلاب في الكلية وهي أمانة في رقبتي وأريد أن أبرئ ذمتي أمام الله وأمامك..

- أستاذة سعاد، أشكر حسك بالمسؤولية ونحن مدينون لك بالشكر.

- هذا واجبي وآثرت الحضور بنفسي لأطمئن أن البيانات قد وصلت إلى رئاستكم، وأكون بذلك ارتحت من حمل هذه الأمانة.

أنتهي من احتساء قهوتي وأودع سيادة الرئيس وأغادر مكتبه وأتأمل الشارع وأمشي قليلاً بخطى المشتاق المستكشف لعالم يجول في خاطره، وأعود بعدها أدراج الرياح على البساط السحري ليحملني إلى بؤرة التخلف والفساد.

لا بد من الوداع، كل ما هو موجود لا يسر خاطري، سأشتاق ووعد باللقاء بيننا، يا دير اصمدي واصبري على هذا البلاء، ما مات فينا سيحيا يوماً كحلم ندي. في يوم عودتي من دير الزور ولجت من جديد في مستنقعات من ذلك البلد العائم على أوهام الحرب، كل شيء كاذب وخاصة تلك الشعارات التي تغنوا بها كثيراً ولم يعد خافياً على أحد زيفها وكذبها وبدأت الناس

بالتململ وكشف الحقائق، ولكن بعد فوات الأوان، صار الماضي حلماً.

عندما عبرت سيارة الأجرة شارع الأماسي واقتربنا من دوار النعيم، كان هناك حشد من الناس لا أعلم ما القصة، سرى القلق والخوف إلى نفسي، سألت صاحب السيارة:

ـ ما القصة ؟ عسى خير.

ـ واللّه لا أعلم ما أقوله لك" أخخخ بس".

وبدا الحقن في نظراته والأسى بادياً على وجهه..

ـ أعدموا اليوم ثلاثة شباب.

ـ هاا.. لماذا ؟

ـ واللّه يا أختي، روايات كثيرة حول الإعدامات، أناس تقول إنهم كانوا أسرى من عناصر الجيش وأرادوا تربية الناس بهم وبث الرعب في قلوبهم، ورواية أخرى تقول إنهم شباب حاولوا تفجير قنبلة يدوية بسيارة مهاجر من أحد الجماعات المسلحة، وتضاربت القصص والحكايات، واللّه أعلم ما الحقيقة، في هذه المدينة صرنا نرى العجائب.

ـ حسبنا اللّه وهو نعم الوكيل، متى أعدموهم ؟

ـ منذ أمس.

ـ من أمس ولم، لم يدفنوا للآن، ما القصة ؟

ـ على حد تعبيرهم تركوهم عبرة للناس كي تعتبر، سيتركون ثلاثة أيام قبل دفنهم وتسليمهم لأهلهم.

ـ يا إلهي، في هذا الجو الحارق، ثلاثة أيام!.

- نعم .. في هذا الجو الحارق ثلاثة أيام.

يتابع...

سنرى ما لم نره، أول الرقص حنجلة، نحن شعب لا يعلم ما ينتظره والقادم أعظم، والله اللطيف بنا.

يخيم علينا صمت رهيب. لا أعلم بماذا أنطق وهل ينفع الكلام؟ لا أعتقد أنه يجدي أو ينفع..

بدأت شوكة الإسلاميين تقوى وتتراجع سيطرة الأحرار وبدأ الناس يتذمرون من سلطتهم وبطشهم والظلم الذي لحق العباد، تلك الجنة المنشودة ما كانت بعد الحلم إلا جحيماً بأشكال متعددة لم يكن للناس عهداً بها على أيام الدولة السورية، رحم الله تلك الأيام.

ما كانت إلا أشهراً قليلة وبدأت الصورة تأخذ ملامح جديدة، لم يعد خافياً على الناس قذارة الحالة التي آل إليها الوضع، بدؤها بالنساء، فرضوا العباءة الإسلامية بداية ومنع ارتداء أي لباس آخر غيرها. أثار ذلك سخط الأهالي وفي الوقت نفسه أرضى الكثيرين منهم، لم يكن الأمر صعباً وذلك القرار طبق في مجتمع أصلاً من تراثه هذه العباءة وترتديها الغالبية من النساء، أما جيل الفتيات الشابات المتعلمات فقد أثار هذا القرار تحفظهن ولكن خشية الفضائح ومن أجل تجنبها التزمت كل النساء بهذا القرار، فالسحب والإهانة في الشوارع ذلك الأمر يسيء للأهل في ذلك المجتمع الذي يرى أن الشرف والكرامة فوق كل شيء وجر النساء إلى "الحسبة "كما يسمونها أمر مهين جداً على الرغم من حدوث ذلك لدى فتيات من عائلات معروفة وتعرض أهلهن للإهانة.

بتنا نعتاد على كل ما هو غير معتاد، وأرغمت الأنفس على تحمل الذل، كانت سياستهم المتبعة أولاً كسر النفس الإنسانية ما أمكن وكأنهم يحملون ثأراً على هؤلاء الناس، تصرفاتهم توحي بذلك، فأسلوبهم في فرض تشريعاتهم لم يحمل طابع الود واللين والنصح، والدين نصيحة أولاً وأخيراً، بالعكس كانوا جبارين جاؤوا بالبطش والقسوة والسخرية من دين الناس، كل ما حملناه من ديننا حتى الشهادة موضع شك عندهم وتؤدي بالطريقة الخاطئة، اعتبروا أنفسهم ذلك الوسيط الذي عن طريقه ترفع الأعمال إلى السماء وبرضاه تقبل وبرفضه وغضبه ترفض، شيء مؤسف، بل شيء لا يمكن لأي عقل تصوره.

في10/11/2013 م...

ازدادت الانشقاقات والخلافات بين الإسلاميين والأحرار بعد أن توحدوا تحت اسم لواء واحد، لكن كل منهم هدفه الذي يسعى لتحقيقه بصورة مغايرة عن الطرف الآخر.

الأحرار لم يكن خافياً على أحد طمعهم ونهبهم لخيرات البلد، ونقل كل شيء إلى تركيا والرؤوس التي سيطرت على النفط عاشت حالة من الترف الخيالي والغالبية منهم جمع ما جمع من مال الشعب وهربه إلى تركيا، حتى مساعدات منظمة الهلال الأحمر السوري كانت توزع بالواسطة وليس للمتضررين والمحتاجين، بل للذين لهم أحرار في هذه المنظمة حيث يقدمون لهم الدعم، أما الإسلاميون فكان جل همهم في البداية تطبيق تعاليم دينهم على

أكبر عدد من الناس وبداية أوهموا العالم بأنهم لا غاية لهم سوى نشر الدين.

تضحكني عبارة نشر الدين في بلد كله يؤمن بوجود الله على اختلاف الطوائف.

وبعد سقوط الرقة غادرت غالبية الطوائف، لم يبق فيها سوى السنة، وربما أعداد لا تذكر، من الأرمن، الأرثوذكسيين الذين غادروا لاحقاً، بعد تكشير الإسلاميين عن أنيابهم وكانوا قد بينوا أنفسهم بتدوين أسمائهم ودفعهم للجزية واستلام أوراق تثبت ذلك لكونهم نالوا حق الحماية، فالغرابيب تحميك من كل شيء إلا الموت، فهي تهديه لك بمذاقات متعددة.

رمي من أعلى مكان في الرقة – رمياً بالرصاص وهذا أرحم موت، قص الرأس وفصله عن الجسد – رمياً بالزيت المغلي – الحرق حياً – الصلب حتى الموت – الرجم حتى الموت، وأخيراً التجويع حتى الموت، وربما قد نسيت مذاق من مذاقات هذا الموت الذي بوجوده صرنا نؤمن أكثر بوجوده، ونخشاه كما لم نخشَه من قبل، وبات حديثنا اللامتناهي اليومي الدائم.

حدث ما كان متوقعاً بسبب تداعيات الأحداث وصارت المواجهة الحقيقة بين الغرابيب وما يسمون أنفسهم بالأحرار، وبدؤوا السيطرة على مقراتهم الواحد تلو الآخر، وسقوطهم كالفئران تحت قبضتهم، من ادعوا أنهم رجال الحق اندحروا هم وحقهم، وبدأت أعلام الغرابيب السود ترفرف على مقراتهم وصار النصر حليفهم من دون منازع. حدثت بعض المقاومات التي لم تصمد

كثيراً، حيث فروا تاركين كل شيء وراءهم ضاربين عرض الحائط بالوعود للناس، وتلك المواثيق التي كتبوها، تركوا للناس الخذلان والاستياء والذل الذي ستقدمه خفافيش الظلام قوتاً يومياً لكل البشر هنا أو بالأحرى لكل الكفرة في هذه المدينة الثكلى.

خلال ثلاثة أيام ليس أكثر دانت لهم الرقة بكل خرابها وخيباتها لتغرق من جديد في مستنقعات الجهل والذل والفقر والشقاء، تاريخ لا يمكن وصفه أو تدوينه ومن المؤلم تذكره.

كل الموالين للأحرار خابت آمالهم وظلوا يكتبون الخسارة استنكاراً.

أما من هم في صف خفافيش الجهل ومواليا لهم ابتهجوا وسارعوا للالتصاق بهم أكثر ومعاهدتهم على البقاء معهم حتى الموت.

في بداية حكمهم تضاربت الإشاعات حول ذلك الهدوء العام والأمان، ما إن قلبت الموازين حتى بدؤوا بالتضييق على العباد، وبدأت الإشاعات تتضارب من حولهم . بعض من الناس يقولون إنهم مع النظام، وحتى الطيران لم نعد نراه إلا ما ندر، وبعضهم يقول إنهم مدعومون من تركيا وأميركا وقيل الكثير عن هذا الأمر.

ولم نعد نعلم أين الحقيقة ومن صاحب الحق، ومن الظالم، الشيء الوحيد الذي لا جدال فيه أن الظلم أطبق على رقاب الناس من دون سبب، السبب الوحيد أنهم وجدوا بالفطرة في هذه البقعة من الأرض وبدأت رحلة موتهم.

لم نكن يوماً يداً واحدة ضد عدو واحد، بسطاء إن لم نكن سطحيين لأبعد حد، عجزنا دفعنا للخوف وعدم المواجهة، بدلاً من مواجهة الواقع ومعاقبة الظالم، حملنا الوطن حلماً على أكتافنا وعبرنا البحر وجعلنا منه قضيتنا الأم ونحن اخترنا هجره بإرادتنا، لا أعتقد أن الغرب فعلوا ما فعلنا لو أن أوطانهم تنزف وتحتاجهم، نحن شر أمة تتكلم ولا تفعل، تهدم ولا تبني، تهجر ولا تعود.
حولتنا الحرب المجنونة إلى أدباء وشعراء وروائيين ومتشردين ودمويين وكفرة ومتطرفين وحولتنا إلى أشخاص غرباء عن أنفسنا، لم تترك لنا فرصة التعبير، بتنا نخجل من نثر الحروف على بياض الصفحات، وكل شيء مطلي بالسواد والعالم يتكلم ونحن نغوص في الظلمات، والعالم تشرق فيه الشمس ونحن يسدل على جراحنا الظلام ...
الموت ... هو اللعبة الوحيدة التي نجيدها بإبداع وتميز في مختلف الأعمار وباتت لعبتنا الوحيدة التي لا نملها ولا نخشاها.
زادتنا إصراراً وبمزيد من الموت نموت، والعالم غارق في صمته، الحق والإنسانية كلمتان تتلاشيان من الوجود.

"أطفئي قنديلك يا حلوتي وارقدي
دعي الحزن في ظلام الليل ينجلي
ستارة الشوق للماضي لا تسدلي
لا تسألي عن تائه أو غائب أو عابر
يتناسى قربك – لا تسألي
دعك من وله القلب وارقصي

رقصة الطير الذي قتل وهو يطرب
انثر فوق الجرح شعرك، لا تخجلي
غني لليل حبك، لحني الألم هللي
من أراد قربك، وجد دربه
ومن أجفى وأبعد، له أشواك الدرب
ويرحل
لأن الرحيل بات خيار التعساء"
هكذا وجدتني أردد وأكملت أقول :" يا إلهي لماذا يموت الأطفال في هذا العالم ؟
لماذا لا ترفعهم إلى السماء مؤقتاً ريثما تنتهي الحرب ؟ ثم تعيدهم إلى بيوتهم آمنين، وحين يسألهم أهلهم محتارين أين كنتم ؟ يقولون بسذاجة: كنا نلعب مع الغيوم. ([9])

نعم ليتهم يصعدون إلى السماء يا كاتبنا الرائع ويلعبون مع الغيوم حتى تنتهي الحرب فلا فائدة من البقاء ولا فائدة من الغياب أينما نذهب تسكننا الحرب ويغادرنا السلام، في أي بقعة في الأرض، نحن الشقاء، نعم تحتاج تلك الأرواح إلى السماء...
علاقتي بهيثم ازدادت سوءاً، حاول كثيراً أن يزيل تلك الحواجز بيننا إلا أنني كنت أتحاشاه ما أمكن، قلبي يشتاق لحديثه، لكننا لم نعد نفهم لغة بعضنا بعضاً، كل واحد منا له لغته التي تروق له، يلاعب وليد ويتعاركان في كل مساء وأرى في عينيه

---

9. دستو يفسكي.

ذالك الحب والحنو عليه، أعلم كم هو حنون بطبعه، لكن لا أفهم طريقة تفكيره، هو له قناعاته وأهدافه ومفهوم الولاء للوطن يختلف تماماً عن مفهومي للولاء، البذل والتضحية من أجل الوطن له منظور خاص، يختلف عن منظوري لكننا لم نكره بعضنا بعضاً، ظل أخي الغالي على قلبي وأنا أخته التي لا يبدلها بكل نساء الأرض، نتحاشى الصدام فيما بيننا، مضت تلك الأشهر بألم رغم كل ما حدث...

مضى الوقت وانقلب السحر على الساحر، غير مسيرة الحلم، خسروا دراستهم في الجامعة وبناء المدينة الأفلاطونية بعد خسارتهم أمام ظلم الغرابيب، ذهب ذاك الحلم أدراج الرياح وباتوا مقيدين بقيود محكمة أكثر من السابق، لا يشاركني همومه خشية لومي له، أعلم تماماً أنه في قرارة نفسه نادم ويتألم لكنه يكابر ولا يظهر الضعف أمامي ولا يبدي أي تنازل وإن كان كذلك، فات أوان الندم، حملنا تلك الماسة النادرة وأهديناها للغرباء ونحن نفينا في بيوتنا واندحرت تلك الشعارات التي حفظناها مذ نعومة أظفارنا.

مدينتي...

جئتك متعبة دعيني أغفو على ترابك برهة، أسند رأسي المثقل بذاكرة الحرب وصوت المدافع، أريد أن أغفو لأنسى، لا تغضبي إذا امتزجت دموعي بترابك، دعيني أحلم بعيداً عن صوت الطائرات ورائحة البارود، دعيني أنام وأغرق عسى ذاك الحلم يتحقق، وأصحو بعد الحلم وأحمد الله أنه كان حلماً لا أكثر...

جلست على رصيف الانتظار أحمل حقيبة الأمنيات أنتظر أن تزهر المنى في الربيع ولم تزهر..
تجرعت مرارة تناوب الخيبات كتناوب الفصول وتساقطت أوراق الشباب في خريف العمر لم نعد نملك سوى صدى الذكريات.
في الساعة الواحدة ظهراً في تاريخ22/7/2014 م طرق الباب بشدة، كنت أجلس أقرأ كتاب شوق الدرويش لحمور زيادة وغارقة في تفاصيل الرواية . أقارن بين أحداثها وما يجري في أرض الوطن. بين معتقدات جيش المهدي وأتباعه ومعتقدات خفافيش الظلام وأتباعه، مفارقات في التاريخ تجعل منا تعساء حد التطابق، هل تعقل أن تكون الأفكار مسممة بالسم نفسه الذي تجرعته هذه الأمم على مدار الزمن؟ نعم، شر أمة اكتفت ببعض الحواشي وتركت الأصل وصنعت من الدين انتصارات مزيفة، بريء هذا الدين منكم والله يشهد.
أفز من مقعدي وأجري باتجاه الباب، يفزع طفلي ويتعلق بتلابيب عباءتي التي ارتديتها على عجل ..
- من بالباب ؟
- نحن الدولة الإسلامية افتحي يا أختاه.
- لا يوجد رجال في البيت، ماذا تريد ؟
- نريد هيثم لا داعي أن تخفيه، سنلتقطه عاجلاً أم آجلاً.
يقفز قلبي من بين ضلوعي ويرتعش صوتي ..
- لماذا، ما به هيثم، ماذا فعل ؟
- لا تسألي كثيراً، لدينا أمر بتفتيش البيت.

- يا إلهي ... تفتيش البيت!
- واللّه، يا أخي لا يوجد عندي أحد، وهيثم ليس في البيت .
- افتحي الباب وإلا نأسف لكسره.
أسدل حجابي على وجهي وأفتح الباب لهم وأبتعد عنه ويدخل رجلان منهم بأحذيتهم. فتشوا الغرف ولم يعثروا على فريستهم، وقالوا لقائدهم :
يا أبا طلحة لا يوجد أحد.
يتكلم ضيفنا غير المنتظر أبا طلحة ويخاطبني
- أخبريه أننا سنمسك به لا مفر.
يغادر هو ومن معه من أشباه البشر وهم يرتدون لباساً باكستانياً ويحملون سلاحاً وقنابل يدوية . يزمجرون كالوحوش البرية ويدعون الخلق والدين، ولم يغادرني الخوف والهلع...
أسقط من طولي وأتهاوى على الأرض. أشعر بيدي طفلي ترتجف وتخفف عني وأنا بدوري أبكي بصمت.
هذه هي الحرية التي كنت تبكيها يا هيثم؟ هذا الوطن الذي رسمته وكنت تحلم به، هذه هي الرقة، مباحة لكل مرتزقة الدنيا.
بعد دقائق أهرع إلى الهاتف وأتصل بأمي
- أمي أين هيثم ؟
- ما بك يا سعاد ؟
- أرجوك، أين هيثم؟
- من ساعة خرج مع صديقه .لا أعلم إلى أين، أخبريني ماذا حصل ؟

- جاؤوا يبحثون عنه .
- ماذا ؟ لماذا ؟
- لا أعلم سألوا عنه. وقالوا: سيجدونه. وهم جادون بذلك وكأن الموضوع خطير، ماذا فعل ابنك ؟...
- تسألين ماذا فعل ابني" هذول ما يخافون الله. شكيتهم لله، حسبي الله عليهم، ليش يحتاجون لسبب".
ألملم أوراقي وكل ما هو مهم وكتبي وأضعها في صناديق من الكرتون وأتصل بجارتي لتبعث ابنها ليحملها لعندهم مؤقتاً وأخذ كل ما أحتاجه وأنزل مسرعة باتجاه بيت أهلي، ربما سيعودون، ولو عادوا وفتشوا بدقة في المرة القادمة ستكون نهايتي القصاص لما أمتلكه من كتب، وبالذات دفتر مذكراتي الذي سيجعل مني صيدهم القادم، وعبرة لكل النساء، أصل عند أهلي وأحرق دفتر مذكراتي وأجلس إلى أمي في حيرة نفكر...
- كيف نجده ولا يوجد اتصال، من سيبحث عنه ؟ من سيجده، من سيخفيه ؟...
تلطم والدتي على صدرها، أحاول تهدئتها لكنها لا تهدأ، قلب الأم يشعر بالخطر حين يقترب من أبنائها، أتصل بجميع أصدقائه على الأرضي والذين نعرف أرقامهم ولكن عبثاً، وكأن الأرض ابتلعته، ألبس عباءتي وكل ملحقاتها وأخرج للسؤال عنه لدى أصدقائه والطيران يحوم فوق سماء المدينة والقصف له دوي وصوت سيارات الإسعاف وإطلاق الرصاص يملأ الجو وكالمجنونة

تحت لهيب الشمس أطرق باب بيت صديقه إبراهيم، تخرج والدته وتقول لي:

ـ ما جاء بك في هذا الضرب ؟

ـ أين إبراهيم ؟

ـ خيراً يا سعاد ؟

ـ خالتي لا تسألي أريد إبراهيم.

ـ ليس هنا خرج منذ قليل ولا أعلم أين اتجه، ادخلي الآن.

ـ لا أستطيع .

ـ ألا ترين الطيران والقصف مستمر؟ أتريدين أن تموتي ؟

ـ يا ليتني أموت وأرتاح، هل هذه حياة ؟

أولي ظهري لها وأعبر الشوارع كالثملة، لا أرى أمامي من شدة الرعب والفزع ، لا أعرف من أقصد وأين أتجه؟ أحاول تذكر بيت صديق آخر، أذكر صديقه مهند في الحارة نفسها. أجده جالساً في دكان الحج علي، أدخل مسرعة ويصرخون بي: ادخلي. يخشون علي من القصف، متقطعة أنفاسي أقترب من مهند

ـ أنا سعاد.

عرفته على نفسي فهو لا يمكن أن يتعرف علي تحت كل هذه الملاءات

ـ هل رأيت هيثم اليوم ؟

ـ رأيته من حوالي ساعتين برفقة ثامر. كانا يتجهان شمالاً.

ـ هل تحدثت معه ؟

ـ بصراحة، سلم علي من بعيد ولم أكن قريباً منه.

ـ شغلت بالي ما القصة ؟

سحبته من يده وأنا أخرج للشارع لأقف تحت الشمس. همست في أذنه

ـ جاءت دورية للدواعش تسأل عنه.

ـ ماذا ؟ لماذا؟ ماذا حصل ؟

ـ لا أعرف، أنت ربما تعرف أكثر مما أعرف، أخبرني أنت ما الوضع ماذا فعل ؟

ـ لا عليك، عودي إلى البيت وأنا سأتصرف .

ـ ماذا تخفي عني أخبرني ؟

ـ سعاد لا تثيري الشبهات، عودي وأعدك سآتي مساء ونتحدث.

ليس المساء ببعيد...

تحت وطأة الخوف والقلق الذي سيطر علي وعلى أمي، نحسب كل طارق من عناصر التنظيم، يأتي مهند ووجه مكفهر لا يفسر

ـ مساء الخير

ـ مساء النور طمنا.

تجري أمي نحوه كمن يريد انتزاع لقمة من فم جائع لا يريد تركها.

ـ طمني يا بني

ـ هيثم بخير لا تقلقن، وغداً صباحاً سيبتعد عن الخطر، ادعوا له فقط.

ـ أين سيبتعد ، إلى أي مكان ؟...

ـ نحتاج للهدوء والتركيز فقط، انصتن إلي..

في ساعات الفجر الأولى نسير في الشوارع كالجرذان المختبئة عن عيون البشر، تحمل أمي من شقاء الدهر كيساً صغيراً بيدها ونمضي في الظلام، حيث وجدنا "فان" ينتظر في نهاية حارتين قطعناهما، فتح مهند لوالدتي الباب لتدخله وتجلس، لأسمع صوت هيثم في داخله.

- طال انتظارنا خشيت عليكما.

كان هيثم وإلى جواره تجلس امرأة، والسائق أبا حسن، وأنا ووالدتي وهيثم، رفعت المرأة الغطاء وإذا به ثامر، ابتسم كالساخر من الموت.

- ثامر هذا أنت؟

ضحك وقال ساخراً : هل ترين ما حل بنا؟..

أرد عليه بابتسامة مدارية خلفها كل وجع.

- بالفعل شرّ البلية ما يضحك.

كانت الخطة تهريب هيثم وثامر بزي نساء كما فعل الكثيرون للهروب من بطش وظلم التنظيم قبل أن يكتشفوا تلك الخطط ليحضروا نساء لتفتيش من هو مشكوك بأمرهم، وقررت والدتي السفر معه لأنها غير مطمئنة لسفره وحده، ولتكون والدته المريضة وهو المرافق، وهي ذاهبة لإجراء عمل جراحي لا يمكن إجراؤه في الرقة لعدم توفر الطبيب المختص، وطبعاً هيثم يسافر بهوية خالة لي، وكونهم في البداية لا يزعجون النساء المتقدمات في العمر. تأملنا من الله أن تنجح الخطة ويصلوا إلى أورفة المدينة الحدودية لتركيا بسلام.

لم تكتف تركيا بنهب ما فككه اللصوص وحمله إليها، بل سرقت شباب هذا البلد، كانت هي المعبر لغيابهم اللامتناهي في بقاع الأرض.

أحتضن والدتي ودموع الفراق والأسى تعتصر قلبي، ويخطفني هيثم من حضنها ليسكن هو أيضاً في حضني، تمتزج المشاعر مع بعضها ولا وقت للوم ... سنبكي الفراق فقط والتشرد والضياع لا تثريب اليوم على ما فات، لن أبكي الوطن والخيانة، هناك أعين تنزف غير عيني العبرات.

يدير السائق المحرك، ويدير قلبي معه، قلبي الذي تجرع كل اللوعات...

يخاطبني مهند بحنو :

ـ لا بد لنا أن نذهب فوليد وحده، قد يستيقظ ولا يجدنا، ويخاف وحده .

أقطف أولى دمعات الوحدة وأصمت ويطول بي الصمت

يا إلهي أستودعك أحبتي "أمي وأخي"

يا إلهي احفظهم من كل مكروه.

تطل أول صور النهار المكفهر كما صار يطل دائماً، وأجر خطاي من العدم .لا وجهة لي لم يبق لي في هذه الديار من قريب، الكل رحل، أو بالأحرى أجبر على الرحيل مرغماً.

يصر مهند أن يوصلني لباب البيت، ذاك البيت الذي مرت به حقب، ولكن ليس بهذا السوء، ما أجمل الموت أمام بشاعة الحياة بعد الغياب، ما أرحم فراق الموت أمام فراق الأحياء..

الذين يختارهم الموت نبكيهم بيأس الفقد الأخير، أما الذين يختارهم الغياب نبكيهم بقلب يائس من اللقاء...

أما أخبرتك يا هيثم.. أن الحرية سراب، والسراب تشي به الأمكنة ولا عابر يخرق السراب، يا فارس الغياب الطويل راحلاً من بلاد الشتات .يجرني على نبض الصحراء .يبعثر الكثبان ويترك على قلبي الندب، من أي عالم مسكون بالحرب جئت ؟، لا تمط عن وجهك ذاك اللثام، بريق عينيك ساطع كشمس الأمنيات في هوت مظلم، وسط المدن المدثرة بسحاب البارود والضباب، ولها أثداء تلغم العاشقين موتاً من لذيذ الشراب، داعب أطراف أسلابها ولا تقترب، في الاقتراب احتراق، وأنت مدرك أن النساء مدن، والمدن عبارة عن أجساد نساء...

لا تستجب لندائها في ذاك الثغاء إغواء، تعلم أن النيات مبيتة، ولا وقت لإشهار السيف أمام زخم البارود، على أنقاض الأوهام، حتى بالوهم اصطنعتك ابتسامات وسط ذاك الخراب، وترتسم على شفاهي أسرار الحياة بين الصبح والأزهار، وأنسج من صبري قناديلاً وأشعار أهديها لعالمك كي تحول الظلام إلى نور ونهار...

أحتضن وليد وأنا كمطعون بخنجر يتلوى من الألم، فاقداً أي أمل بالشفاء، ولو برأت جراحي، فجراح مدينتي كيف ستبرأ بعد ذلك العراك الطويل، أسبلت جفني للنوم المسهد، أستيقظ على صوت وليد يوقظني .

ـ ماما ... ماما . الباب يطرق.

لا أستطيع فتح جفني، حسناً، أسأل من خلف الباب من الطارق، ما هي إلا لحظات ويعود إلي.

ـ ماما، فتاة تقول إنها الخالة طيف.

ـ طيف ! حسناً افتح الباب. أنا سآتي حالاً، طيف ... ما الذي جاء بها؟

تجلس كالملاك تحيط بها هالة من نور وجاذبية لا توصف رغم ما ترتديه من سواد، زادها جمالاً على جمال.

ـ حبيبتي طيف أهلاً، كيف حالك ؟...

ترمي بجسدها النحيل في حضني لتجهش بالبكاء من دون أن تتفوه بحرف، لا شيء غير النحيب والألم. جرحي الذي لم يغفُ بعد، تتوحد آلامنا وآمالنا، نتلاشى في ظل البعد، كل ما هو إنساني ممتزج بنا عاطفة الحبيبة وعاطفة الأخت وغيرها.

أجلسها على الأريكة وأطبطب عليها على الرغم من أني لا أجيد دور الشخص المواسي ولا تحضرني كلمات مناسبة تخفف من وجعها، كيف أخفف هذا الوجع وأنا مثلها أتوجع؟ حلمنا أن نبني بيتاً صغيراً نكون فيه أسرة من طفلين أنا وهو، أن نعتني بهما ونوفر لهما ما حرمنا منه، أن نعلمهما معنى حب الوطن، معنى الحرية. معنى الواجب والحق، معنى الإنسانية التي افتقدناها، وعدني ألا يتخلى عني لكنه فعل، وعدني ألا يحب امرأة غيري وأن يهجر العالم ويسكنني وطني، وعدني ألا يسمح لأحد أن يوجعني وهو أول من جعلني أتألم...

ـ سعاد، هل هذا عدل ؟

ـ ما اختار هذا القدر، الرمد أهون من العمى، سفرة أرحم من الوقوع في قبضة هؤلاء الكفرة.

ـ طيف. كل شيء مضى وانتهى ولا وقت لدينا لنندب الماضي ونلطم، فقد طمى الخطب وما عاد الكلام يجدي أو ينفع، اهتمي بنفسك ودعي عنك هذا الكلام، ما حصدنا من الكلام إلا المصائب والنوب...

ـ سأحضر القهوة قبل أن تنفجر دماغي.

صراعات لا تفسير لها، أشياء متراكمة في دماغي تطرق أعصابي بمياجن من حديد صلب، وجسمي يتلاشى ويذوب بالحزن ولا أحد يشعر بما أعاني.

طيف قصدتني لتبكي وجعها، وأنا من أقصد لأبكي ذاك الوجع؟ ... أفتقدك بشدة يا أحمد .. أفتقدك.

ستهرب الكلمات من دون أن تجد أذناً صاغية لها، من دون أن تجد شفاهاً تفسرها. سأعزف لحن الخراب وحدي، على وحدتي أقف، أبدد الوقت بسلاح الزمن الفاتك بالعمر، يؤازره الظلم وشعارات المجد الساخر، لماذا كل من أحببناهم غادروا وتركوا لنا الوجع؟.

فقط طرق الضياع مفتوحة أمامنا، كل الطرق إلى الوطن مغلقة. على ما يبدو لن ننعم بالسلام والأمان، أثبتنا للعالم أجمع غباءنا السياسي بجدارة من دون منازع.

نجلس متخمين بالخيبات كلما لاح في الأفق خيط من نور الأمل المنشود للسلام، نكتشف ببساطة أن هذا السلام مجرد مصالح

ومنافع خداعة لجهات مدفوعة من الخارج تزكي القتل والدمار باسم أمان الوطن وحرية المواطن.
متناسين أنه التعن أبو "أفطاس" هذا الوطن، وذاك المواطن الذي بات جل همه أن يصحو من كابوس الحرب التي نهشت لحمه وبدأت تفتت عظامه.
ما الحل ؟...
وإلى متى ؟..
وماذا بعد ؟...
يا أمة لم تستح من بين الأمم، يا عرب فاقدي العروبة والنخوة، يا عبيد النفط، يا مصاصي الدماء، يا تجار الشرف، يا عديمي الرجاء...
أتخمتنا زيف الشعارات والفتن.
اكتفينا ذلاً وهواناً وانتصارات زائفة على بيادر الجثث وعلى ركام التاريخ والحضارات، يا أمة لم تعرف يوماً كيف تمثل دور الأم، هي مجرد عاهرة تجيد الرقص والبغاء مع الأعداء، أنا مستنكرة لعروبتي المستولى عليها قهراً، أنا رافضة ومستنكرة لكل حوارات الخداع التي أداروها بالدم، أنا هازئة بكل الدساتير للممالك والمدن.
تتحدثون عن الإنسانية.
عرفوا الإنسانية ؟
عفواً من حضراتكم، سأعرف أنا الإنسانية..

الإنسانية : أجساد تنام على الأرصفة، ومنازل تهاوت تحت دك الصواريخ والمدافع.
الإنسانية : قطعة خبز بيد طفل جائع، عاش بين سنابل القمح، وبات يحلم برغيف خبز.
الإنسانية : قلم ودفتر بيد طفلة قصت ضفيرتها بعد التشرد.
الإنسانية : هي نقش الحناء على كف عروس قبل العرس تترمل.
فلتذهب إلى الجحيم إنسانيتكم المزيفة يا وحوش الزمن الغادر.
يا بصمة العار في تاريخ الأمم، يا غربان الشؤم.
أنتم غربان هذا الوطن.
تعبت هذه القطعان من اجترار الكذب وارتشاف الذل، تعبت من البحث دون جدوى عن مرعى غير ملوث بالنفط ودماء الحرب، تعبت من البحث عن الكلأ غير المسمم. سم الادعاءات الساقطة .
على كل من تحدث باسم القطعان المشردة، بأي حق تتحدثون وأنتم تسكنون الفنادق الفاخرة ونحن ننام على الأرصفة؟ بأي حق تولمون للسلام جثث الخراف المشوية على نار الحروب المسيسة؟.
وأبقى مع الأماكن القديمة أقرؤها، فهي قصص بلا لسان.
يرن الهاتف الأرضي، يسرع وليد ليرد
- أهلا خالتو، الحمد لله، الجميع بخير.
- وليد حياتي من ؟
- ماما الخالة رهام.
- رهام يا حبيبتي، بعد زمان .أهلاً رهام.
- يا قاطعة والله إنك ظالمة ما تسألين ولا تتصلين.

ـ مهلاً، حدثت ظروف قاهرة، والله غصباً عني، لا ينفع الكلام على الهاتف أرجو أن تزوريني، فأنا جد متعبة وأحتاج للنصح.

ـ خيراً، شغلت بالي.

ـ رهام غاليتي، لا ينفع افهميني وتعالي إلي فقط.

ـ حسناً سآتي مساءً، سأطلب من إسماعيل أن يوصلني، بحفظ الله.

ـ مع السلامة.

تزدحم ذاكرتي بصور العائلة قبل أعوام عندما كنا نملأ البيت ضجيجاً وصخباً، ونظرات أمي وابتسامتها الهادئة، رائحة" المحشي" على النار وطعام أمي له نكهة ومذاق مختلف، أسلوبها بحل النزاعات الدائرة بين الإخوة، زيارات الأحباب والجيران، جلسات السمر على سطح المنزل مع ضوء القمر، زيارات جدتي رحمها الله وخرافات زمنها الذي أكل عليه الدهر وشرب، كلها ذكريات من بارود ونار تغتالني ومن ثم تحرقني وتتركني رماداً في موقد الألم.

والدي، ذاك الجبل.

أيها المتشح برداء الغياب الطويل، أقبل واطمئن علي، فخيط الوصال مازال معلقاً، لا تغب بين الضباب من جديد، أنا اعتدت الجلوس مع الأطياف بعد الرحيل وألفت الوجع وعقدت صحبة مع وحشة الليل وصرنا رفاق لا نفترق، أنا بقايا من نور وحجر الروح تبكي والجسد ركام، أنا رسام بلا ريشة ولا ألوان أنا ماض بلا عنوان، أقتل الصبر فيعبر النفس طمعاً والعين تغفو ولكن القلب

في حالة هذيان، أنا مازلت حية رغم الألم وفي عالمي تشرق الشمس وخبز الحياة كلام في كلام...
أنا سليل الحرب والدمار والأوهام، أنا ذكرى مصلوبة الأطراف إلى وتد الزحام، أنا الزمن المسروق بين حلمين واقعيين وبين رفة جفن وغمضة عين، أنا الشقية بين الناس، أنا الباكية عمر الفتات، أنا حرف في كتاب فيه كل الضمائر غائبة والجمل مشذبة، فلا أسفاً ولا عجباً إذا غاب ضميرك أيها الإنسان.
أنا من أمة تبكي التاريخ فخراً وتنسج أساطير الحاضر جهراً وتغوص في طلاسم الوجدان، أننا يا سيدي من مدينة ظاهرها رخام وباطنها خيام تتقيأ المبادئ بالكلام، أنا قطرة من جوف فرات الدم حملتها الرياح إلى بلاد القحط والظلام...
جاءت رهام على الموعد، كانت فرحتي بها لا توصف فهي تعرف كيف تبدد وجعي، تحدثنا طويلاً عن كل ما حدث فهي شقيقتي التي لم تلدها أمي بحق، أرتاح عندما أفضي لها تلك الهموم الجاثمة على صدري، أتنفس أكسجين الحلم من كلاماتها التي تبث فينا الأمل ولا يخلو الجو من المرح، فهي خفيفة الظل، تذكرتي بمغامرات الزمن العابر عندما كنا نترافق إلى السوق معاً وبعض الواقف التي تفتعلها لكي نضحك . نعم .. الله يقطع بك من جانب ويصلك من جوانب أخرى، أنا مؤمنة بقضاء الله حامدة شاكرة، والحياة لا بد أن تستمر رغم أي وجع...
- لا أعلم يا رهام ماذا أفعل هنا في هذه المدينة، بت لوحدي من دون سند، لم أتصور يوماً أن أكون وحيدة وأنا كنت أعيش بين

عائلتين بيوتها مشرعة ولا تغلق ولا يكاد البيت يخلو من الضيوف وجلسات السمر، انظري هذا الزمن ماذا فعل بنا؟.

ـ من منا بقي على حاله من دون غصة يا حبيبتي؟ من منا لم يفارق أحبة؟ أغلب أهل الرقة سافروا خارجها ومنهم من هجر الوطن كله واتجه إلى أوروبا، هوني عليك.

ستهون بإذن المولى، ما بيدنا غير الدعاء، فنحن مجرد ريش يتلاعب فيه الهواء كيفما يشاء ولا أحد في الدنيا يعلم أو يدرك ما يحل بنا.

ـ هم يعلمون جيداً ما يحل بنا ولكنهم يتجاهلون، فهم تجار دم، فالإعلام يحسب المكاسب والمذابح ويحسب ما تحتويه مخازن السلاح الذي يتم تصريفه في أرضنا والتخلص من نفايات البشر عندهم بإرسالهم لقتلنا ومن ثم الموت بيننا بحزام ناسف، لا تذكريني يرحمك الله بهول مصابي، فمصابي بالرقة لا يعادله مصاب.

ـ صدقت، دعينا من سيرتهم العفنة، ما أخبار القلب، هل يدق اشتياقاً لأحد ؟..

ـ يا ليت .. صدقاً لو هناك أحد على حد تعبيرك لأخبرتك فوراً.

ـ سعاد العمر يمضي، تزوجي وارمي همك على رجل يكون سنداً لك في هذه الظروف القاهرة، أنت ما زلت صبية وجميلة. لا تدفني شبابك بالتفكير والهم.

ـ أتمنى أن أفعل ولكن عناد القلب، أنت تعلمين من يسكنه، لا أستطيع، صدقيني لا أقدر

- هذا وهم، الذي خلق أحمد خلق غيره، لا تكابري.
- سأفكر بالأمر.
أقول لها تلك الكلمات لتتركني وشأني حيال أمر الزواج، فأنا ميتة القلب، من سيرضى بجسد شابة وقلب هرم لا يعرف الحب ؟ أودعها في منتصف الليل وكلي امتنان لزيارتها وتعدني أن تعود لاحقاً، فهي الصديقة الصدوقة. أعلم أنها لا تتركني أعاني وحدي، أفكر بكلامها وأتذكر أحمد، ترى أين أنت الآن، وفي أي بقعة من الأرض تسكن؟ لقد انقطعت أخباره عني منذ بداية الأحداث، فأخته حالها حال الغالبية من السكان نزحت ولا أعلم لها وجهة وبما أنه لا اتصال بيننا على الجوال، انقطع منها أي خبر.
إخوتي، أمي ... أشتاق لكم .
خلف ذلك البحر تسكن الجبال. تطاول بقاماتها السماء، تحمل الوطن قمحاً وعناقيد عنب وحبات توت وعنفوان، على راحتها يولد المجد، ويحلمون بأوطان الخلود في الأرض، للحق كبوة وللظلم كبوات، والحق يوماً سيظهر وينتصر. على مرفأ الذكريات تلوح السفن المغادرة حضن الوطن ووجد الأمهات صوراً لا تمحوها رياح الهجر على دروب الشقاء، لطالما آمنا بتلك الجبال، وآمنا بأن الوطن أم والأم ستحضن الأبناء يوماً ما، فالأم قلبها يغفر الهفوات.
تناوبت زيارات طيف ورهام وجارتنا الخالة أم مهند صديق هيثم، وفي أحد اتصالاتي بوالدتي من محل النت الفضائي، قالت لي :لا يمكن لك أن تبقي وحيدة في هذه المدينة. لا بد أن تأتي إلى

تركيا، أو تسافري لعند خالد إلى السعودية، فبقاؤك وحدك يشكل مصدر قلق للجميع.

تلقيت من أمي هذه الكلمات وأنا مقتنعة بجدية ما تقول، وأظل أسأل نفسي لماذا أنا متمسكة بمدينة فاقدة لذاكرتها ولا يتحرك بها شعور الرحمة نحونا؟ ولكن علي أن أفكر ملياً بكلام أمي ويجب أن أجد مخرجاً من حالتي البائسة، وأفكر بوليد الذي صار له قرابة سنة وأكثر بلا دراسة، حاله حال جميع الأطفال هنا، والذين حرموا من التعليم إلا أن بعض الأهالي الذين أرسلوا أطفالهم إلى الجوامع لتعلم دروس الدين والدروس الثانوية في الجهاد غير المعلن.

كنت أجلس معه بعض ساعات في اليوم أقرأ عليه بعض القصص وأعطيه بعض دروس القواعد والرياضيات فأشعر به يمل بسرعة فلا ألومه وأتركه للتلفاز الذي صار عالمه الذي أدمنه، فلا متنفس لديه غيره مع تضارب الأحاديث بمنع التلفاز بقرارات من التنظيم. وقد نفذ هذا القرار في الأسواق وتعسر عليهم تطبيقه في المنازل، إلا بعض الحالات التي كشفوها بالمصادفة.

بعد تفكير طويل قررت السفر إلى دمشق للحصول على جوازات سفر، وتقديم إجازة بلا أجر لأسافر إلى الرياض لعند شقيقي خالد، على الرغم من تحفظي الشديد حيال سياسة هذا البلد فهم السبب في دمار بلدي، فكيف لي أن أعيش هناك؟ أما بالنسبة لموضوع تركيا فهو مرفوض بالمطلق، فهم ذاك الطوفان الذي جاء بالخراب بكل أشكاله والدليل على ذلك تلك العناصر التي تصنع

الموت والدمار وتنهب خيرات وطني، ناهيك عن قتل الهاربين من الموت والباحثين عن السلام في ظل دولة أردوغان الذي رسم صورة لنفسه بأنه سلطان العدل، لكنه كفر بكل الأديان. هو ليس أكثر من مجرم محترف أغوى تلك الخراف الساذجة وجذبها لأرضه واتبع تلك السياسات المفبركة لتسوية اقتصاده والمتاجرة بفلسطين بعد أن تنازل الإسلام والمسلمين في العالم عن فلسطين قضيتنا الأولى.

التفكر بتلك الصراعات الدائرة على جغرافية الأرض العربية الجاذبة لكل من هب ودب لقلب الصراع ومعه الحق الواضح، يودي بالعقل للجنون المؤكد، لكن النسيان يخفف ذاك الجنون ليكون جنوناً مؤقتاً بحسب الحالة والحدث.

مضت أكثر من ثلاثة أيام ولم يطرق مهند الباب لسؤالي ماذا أحتاج كعادته، فافتقدته وخشيت عليه، فهو اعتاد زيارتي يومياً بعد سفر هيثم ليسأل ما نحتاجه من مستلزمات وحاجيات للبيت، كان شهماً جداً وفياً لصداقة هيثم وحافظاً لعهد الأخوة والجيرة والعشرة بيننا كأهل وجيران، افتقدته في اليوم الأول ولم أتصل. خشيت من الحرج وبأنني ألزمه بنفسي، وقد يكون مشغولاً أو لديه عمل، لكن بعد مضي اليوم الثالث انشغل بالي عليه أكثر فقررت أن أتصل وأسأل أهله عنه. ردت أخته الصغيرة حلا، بعد أن ألقيت عليها السلام سألتها أين مهند ؟

قالت بحزن : لا نعلم، لم نسمع عنه خبراً منذ ثلاثة أيام.

ـ ماذا ؟ أين ذهب ؟

ـ لا أحد يعلم عنه شيئاً.
تمتمت بقلق: حسناً، سآتي لعندكم الآن.
أغلقت سماعة الهاتف وأخبرت وليد أنني سأذهب للجيران لشأن عاجل ولن أتأخر.
ـ وليد حياتي لا تفتح الباب في غيابي لأي طارق كائناً من كان.
ـ حسناً ماما.
ـ ولا تأكل كعادتك أمام التلفاز، عندما أعود سأحضر الطعام.
يتأفف :حسناً ماما لن أفعل.
أرتدي تلك المصائب وأمضي لبيت أهل مهند بقلب خافق وفكر متسائل، ما الأمر؟ ماذا حدث ؟...
أطرق الباب الذي كان مواربا وأدفعه بهدوء وأدخل منادية الخالة أم مهند، كانت جالسة في ظلال الجدار الذي يطل على الشارع مظاهراً للدكان الذي له باب على أرض الدار. تضع سيجارة بيدها ومسبحة باليد الأخرى متربعة على بساط فوقه اسفنجة بالية ضعيفة، والحزن بادياً على وجهها الذي تخضب بسهادها مع الليل وجفاء النوم والصراع مع الهموم والتفكير.
ـ صباح الخير.
ـ أهلا يا بنتي .
أقبلها وأجلس إلى جانبها: طمئنيني عن ابنك ماذا حدث ؟
ـ وهل أعلم ما حدث، ليتني أقف على خبر له أطمأن عليه. سألنا أولاد عمه وإخوته الصغار وأصدقاءه ولم نصل إلى أي خيط يوصلنا إليه.

أقول لها تلك العبارات البلهاء التي لابد أن نقولها، والتي لا يمكن أن تحد من خفقات قلب الأم المتعبة من الخوض في رمال الوهم والوهن معاً.

- هوني عليك، إن شاء الله سيعود قريباً ويكون الأمر مجرد حدث عارض لا أكثر.

- إن شاء الله.

تقولها بطابع المجاملة لا أكثر. أخوات مهند الصغيرات خرجن يحملن القهوة ويقدمنها إلي بخجل. لا أذكر هل ارتشفت منها أم لا، بدأت أصوات الهواجس تتعالى في داخلي . أكفها عني فتعود أعلى وأقوى لتدوي برأسي وتحاول فجه، فأنا غير مرتاحة لاختفاء مهند...

- خالة ماذا بوسعي أن أقدم لك؟ أنا أشعر بالعجز، إذا احتجت لأي شيء اتصلي بي وفي حال وصول أي خبر عن مهند بشريني، مهند أخي الصغير وهو بمقام هيثم..

تهز رأسها وكأنها تنفي عودته وتستبعد موضوع البشرى التي أطالبها بها في حال لو حدثت.

أعود إلى بيتي بخطى مثقلة بالهم حدت من موضوع فكرتي بالسفر في هذا الوقت، لا بد أن أنتظر أي خبر عن مهند.

المصيبة لا تستحي من المصائب التي سبقتها، فالمصيبة جاهزة دائماً لتحطيمك من دون شفقة والإشهار بك لتكون حقيقة مزيفة أو إشاعة تتناقلها الألسن التي لا تكف عن الثرثرة، ولطالما استمتعت بالأحاديث التي تطعن بالناس من دون التيقن منها، بدأ الناس

يتحدثون كثيراً عن اختفاء مهند وكثرت الإشاعات والأقاويل إلى أن جاء شخص في منتصف ليلة تموزية ملتهبة، حيث أخبر الخالة بأن مهند في سجون التنظيم في النقطة (11) كما كانوا يسمونها وهو قد خرج منذ عشرة أيام ولا يجرؤ على الحديث عن الأمر إلا أنه قرر أن يوصل هذه الرسالة من مهند لأنه سيهرب ليلتها إلى تركيا خوفاً من بطشهم، فهو لن يأمن أن ينسحب مرة أخرى بتهمة مشابهة، فسجناء النقطة (11) يختلفون عن غيرهم من السجناء، وهم الذين يشكلون خطراً على كيان التنظيم.

كانت تهمة ذاك الشاب أنه جاسوس للنظام، وعندما قصفت الطائرة الملعب، فرّ مجموعة من السجناء الذين نجوا من الموت وهم ممن حالفهم وتمكنوا من الجري، أما الذين لاقوا حتفهم فلم يتمكنوا من ذلك بسبب ورم أرجلهم والكدمات على أجسادهم، فهم أموات لكنهم شبه أحياء لشدة ما لاقوه من تعذيب، أو هم أشباح بين أحياء على حد تعبير ذاك الشاب الذي نجا من الموت بأعجوبة، حيث ترك له السجن ندوباً على جسده سيظل يذكرها مهما كتب له الله من العمر، وقد سافر بعد أن أدى الأمانة وأخلى ضميره من المسؤولية ومضى . هكذا مصير شبابنا، موت، هجرة، فقدان أثر إلى الأبد...

قدر أحمق حمل المصائب وصبها كالجمر على رؤوسنا فلا مهرب منها لا مهرب، أعان الله تلك الخالة أم مهند ومنحها الصبر، فصحتها بدأت تتدهور ولديها أطفال يحتاجون لها فهم أيتام وهي

أرملة من قبل الحرب. توفي زوجها الذي يعمل سائقاً بحادث سير على طريق حلب الرقة .

كان رحمه الله قوي البنية .رجلاً شهماً، أبيض اليدين عصامياً ومعتداً بنفسه، ترك لها هذا الحمل ورحل، واهتمت كحال نساء مجتمعنا بتربية أبنائها وتعليمهم، وكبيرها مهند كان يدرس الحقوق في الدير، وبعد الحرب جلس كغيره من الشباب والتزم البيت، وبما أنه لم ينتسب للتنظيم فقد انصهر بتفاصيل الحياة المتعبة، وكان يجلس في الدكان بدلاً من والدته ويعيل إخوته في ظل ذاك الغلاء الفاحش، وشاء القدر أن يلوع قلبها بالفقد، الفقد الأول زوجها، والفقد الثاني فلذة كبدها مهند، تلك الأرملة والثكلى ما أقول بحقها؟

كنت أدعو الله أن يعيده إليها سالماً غانماً وألا يحرق قلبها كما احترق سابقاً على زوجها.

مضى أكثر من شهر ولم يأت أحد بخبر جديد، وبدأنا نعتاد الأمر. في هذه المدينة يجب أن تتقبل أي مصاب وتراه فعلاً متوقعاً لا يستلزم الاندهاش والاستغراب، فكل ما لا يمكن العقل استيعابه قد حصل وسيحصل.

يقترب عيد الأضحى والوجوه موجمة لا شيء يستحق الفرح، فنحن كل يوم نحتفل بأضحى، والأضحيات لا تقدر بثمن لأنها فلذات أكبادنا، وكأن نبوءة آزر والد سيدنا إبراهيم تتحقق، ولكن ليس بأيدينا بل بأيدي وباء العصر ذلك الإرهاب الوافد إلى بلادنا، أتصل بوالدتي لتخبرني أنها ستسافر إلى الرياض وأن هيثم قرر

الهجرة إلى ألمانيا كغيره من الشباب الذي يحلم باستكمال دراسته هناك، وعلي أن أسافر بأقصى ما يمكن إلى دمشق لألتحق بها ومن ثم السفر إلى الرياض، صار الموضوع جدي، عليَّ مغادرة هذه المدينة الثائرة على ذاتها المتعطشة للدماء الفاقدة لذاكرتها والمسالمة..

أتصل كعادتي بوالدتي وإخوتي للاطمئنان عليهم وعندما فتحت رسائل الواتس وجدت أكثر من خمسين تسجيلاً صوتياً من هيثم، فقلقت.....

لم أجرؤ على فتحها في محل النت لأني شككت بالأمر، ليس من عادته أن يرسل كل هذه الرسائل، لا بد أن هناك أمراً ما...

أرد على رسائل والدتي الملحة على سفري، كما هي رسائل أخي خالد وأختي البتول . أعود أدراجي قلقة متوجسة من الرسائل، أدخل غرفة نوم والدتي وأغلق الباب خلفي وأتذكر تلك العبارة المتوارثة، للجدران آذان. وبرعب أفتح تسجيلات الصوت الواحد تلو الآخر لتتسع عيناي دهشة وينتفض قلبي فزعاً وأنهار بكلي، وأدخل دوامة من الأحداث المتداخلة المتضاربة الخيالية الواقعية بحرفيتها، يا إلهي ما كل هذا الهم، ماذا بعد ؟...

بعد أكثر من ساعة أستعيد رباطة جأشي وأرتب الأحداث على مهل وأعاود الاستماع لتلك التسجيلات، ثم أضغط بعد الانتهاء من كل تسجيل على" مسح "لأول مرة في حياتي يسكنني كل هذا الخوف ويهزني الرعب بل ويهزمني، لأعرف ماذا أتصرف أو ماذا أفعل طيارة أمي الخميس القادم إلى الرياض واليوم هو الأحد

وهيثم مجنون لا يرد على أحد، هل أترك أمي تسافر موهومة بأن هيثم سيتجه مع أصدقائه إلى مدينة أزمير التركية للهجرة عبر سفن الموت إلى اليونان؟ أم أخبرها بأنه عزم أمره على العودة إلى الرقة، مدينة الموت المؤكد ؟ ومن ثم لو أخبرتها فهو سيتصرف بما يمليه عليه عقله. أعرفه عنيداً لن يسمع لكلام أحد، ثم أمي ما ذنبها أن تظل مشردة ؟ وهي امرأة تجاوزت الخمسين من العمر وشردتها الحرب كغيرها، فلتسافر إلى خالد وتستقر وتترك لكل فرد منا تقرير مصيره، ففي النهاية قد رسم كل واحد منا هدفه، أو بالأحرى حددت الحرب هذا الهدف بالهجرة والبدء بحياة مختلفة عما حلمنا وخططنا.

بدأت شبكة العنكبوت تكتمل في رأسي المزدحم بالخيوط التي كانت ممزقة .. طيف .. مهند .. ثامر .. وأخيراً هيثم . هل هم جناة ؟ أم أنهم ضحايا؟ هل هذا جزاء من جنس العمل؟ أم أنهم أبرياء من كل التهم؟ لا أعلم. يا الله دماغي سينفجر...

عقدت العزم على السفر، من أين جاء هذا الخبر الجلل؟ كل ما يحدث أكبر .. أكبر بكثير من قدرة العقل على التحمل، ماذا أفعل؟ المشكلة أخشى أن أتحدث براحتي على الهاتف وأرسل ما أريد له أن يصل، فحملات المداهمة لمحلات الانترنيت قد تكون في أي لحظة وقد أكون متهمة من دون سبب وأنا أسدي النصح لغيري فماذا أفعل؟

أرسل تسجيلاً صوتياً لهيثم أتوسله ألا يأتي وأنا مؤمنة أنه لن يفعل، سيأتي بلا أدنى شك سيأتي..

سيأتي ليموت رقماً مُبهماً ولا يدون في سجلات الموتى ظاناً أن هذه بطولة، متناسياً أن البطولات ماتت بموت الوطن، كل شيء فينا مات، عن أي دور وواجب يتحدث، بل هو الحب ما دفعه للحضور برجليه للموت، أرى رأس هيثم مفصولاً عن جسده كما أرى نفسي في مرآة المصائب التي لا تستحي..

في اليوم التالي أرسلت تسجيلاً صوتياً لخالد عله يثنيه عن قراره وأخفف عن نفسي تأنيب الضمير، حيال الصمت لا يمكن أن أتركه أن يعود لحتفه...

كان التسجيل موجزاً مختصراً :" خالد، هيثم قرر العودة إلى الرقة وهو مصر على ذلك وأمي لا تدري، أخي الحبيب شاركني الهم والرأي، ما العمل؟ أقنعه أن يعدل عن رأيه فأنا لا أستطيع الإيضاح أكثر، اتصل به وافهم منه وتصرف بحسب ما يمليه عليك عقلك، أنت رجل ولك رؤية مختلفة عنه".

لم يمض أكثر من ثلاثة أيام على اتصالي بخالد وكنت أرتب أموري للرحيل وأبتلع غصاتي فلا طاقة لي على فراق الرقة وأريد أن أتركها وهي تحتضر تحت رحمة الموت، أي قلب أمتلك وأي قسوة تسكنه؟ فالخيارات أمامنا محكوم عليها بالوأد وأنا رحى هرمة تدور على نفسها، طحن تطحنها. فقدنا كل شيء بسبب الخداع والكذب والسياسات الأممية الساقطة.

في كل ليلة أدعو الله ألا تكون ليلتي الأخيرة وأتحجج بكثير من المبررات للتأجيل ولكن سيأتي الغياب ولا شك ليتفقد أماكننا

المزدحمة بالذكريات، قلبي مثقل بكل شيء ويبدو بأني وصلت لمرحلة اللاشعور بشيء وهذا أسوأ ما يمكن لأي إنسان أن يصله.
أنام مغمضة العينين يقظة القلب، فقدان الأمان إحساس رهيب ومرعب لا يمكن لأي كائن خارج هذه البقعة الجغرافية أن يشعر به، وحين سمعت وقع خطى في البيت فزع قلبي، وارتجف خوفاً، أنظر إلى الساعة تقترب من الثالثة صباحاً، أجمد في مكاني والخطى تقترب ماذا أفعل. ؟
أستجمع ما بقي من طاقتي لأنهض وأستطلع الأمر وألف خاطر يمر بخيالي ويتبخر، عندما أفتح باب الغرفة يغشاني الذهول
- هيثم...
- لا تخافي، ما قصدت أن أرعبك.
أشحذ أنفاسي وأتهاوى إلى الأرض، يركض هيثم ويغمرني كعادته بحنان لم أستطع أن أقبله وأرحب به لأن عزمي يتلاشى، ينهض بي ويجلسني وهو يعتذر.
- على أساس أنك شجاعة وأخت رجال وكل هذا الخوف سكنك.
- "ليش ظل رجال؟ "
- صدقت .. لم يبق رجال.
يكسر خاطري، كيف أحدثه هكذا وأعلم ما وجعه تماماً، أحاول تدارك فضاضتي
- "ما صار وسويت إلا اللي براسك" .

ـ سامحيني أنا لا أستطيع أن أكون نذلاً، ربما لن أنقذها من موت محتم ولكن كي تعلم أنني لم أتخل عنها ولم أخنها في أي لحظة، لست أنا من يترك أنثى منحته ثقتها ويهرب، ويتركها تواجه مصيرها لوحدها، إما أن نموت جميعاً أو يقدر لنا اللّه النجاة، وهذا شيء مستبعد، سعاد فات ما فات لا تعاتبيني، الخسارات لا تعد ولا تحصى ولست بنادم، لكل منا عقيدة ومبدأ وهدف، ليس ذنباً أنّا حلمنا بمستقبل أجمل فكان المستقبل قاتل ومجرم لأبعد حد، هكذا قدر الضعفاء من الشعوب المستهلكة، نحن سلعة الموت. نحن حصاد كل الخسارات والتراكمات والكذب، نحن المجهول الذي يرحل، ولا أحد يعرف أو يتعرف عليه، ولا أحد سيعترف به بعد موته، أعلم أن قلبك لن يسامحني، ولكن كل ما أرجوه أن تغفري لي أي ذنب بحقك ارتكبته عن قصد أو من دون قصد، فأنت قطعة من قلبي، انتبهي لنفسك ولوليد ورجائي أن تتركي هذه المدينة التي تغري الموت بكل ما تمتلك من جاذبية، مستقبل ابنك ليس فيها، ارحلي، لن يجدي البكاء على الأطلال يا بنت المأساة، لأن الماضي مضى ولن يعود، ولو عاد ينقصه كل الأحبة...

تفيض كلماته بالصدق والحنان واليأس الممزوج بالمرارة والخذلان من الحياة، وتفيض عيناي بدموع الألم والاشتياق والفقد ومناجاة الصبر والجلد، لا ينظر إلي كي لا يضعف، يا ملاكي الصغير، اضعف وتراجع عن قرارك...

يا أيها الأمير العظيم، ما أعظم رجولتك، ما أعظم إنسانيتك أيها النبيل بطبعك، أيها العاشق الأصيل ما أعظم عشقك، أضمه لقلبي ولصدري وجوارحي وأطلب من الله أن يختفي ويتلاشى بداخلي كي أحميه من موت مؤكد، دائماً الموت يداهمنا فجأة، إما أن نختاره ونمشي إليه، وهذه أجمل صورة للموت، وأشهى موت أن يكون بكل نفس راضية. نقدم الروح فداء للحب وفداء للوفاء واحتراماً لإنسانيتنا والرجولة في زمن غاب فيه الرجال ورحلوا بلا عودة...

- هيثم يا صغيري ماذا أقول لك؟ أريد الصراخ لكن لا أملك صوتي فهو آثر الرحيل معك أريد أن أركض وأفر من فك الموت وأنت بداخلي كي أمنعه من تشويه جمالك ولكن قدماي في أرض رجولتك زرعت، أريد البكاء وأخشى أن يفيض الدمع ويغرقك قبل بلوغ الأمنيات والحلم...

- هل زارتك طيف ؟ أخبرتني عندما كانت تتصل بي أنها زارتك، ماذا قالت لك ؟ عن ماذا تحدثتما، هل هي غاضبة مني. ؟

كانت أسألته بجماله، ببساطته، بنقائه، بصفاء روحه، كانت تشي بشوقه لها، فماذا أقول له وعن ماذا أحدثه ؟.

أبتلع عبراتي بمرارتها التي تسري بعروقي كالسم الذي يسري بالخدر إلى جسدي وبصوت مغبون أرد عليه بأنها أخبرتني أنها تحبك وحدثتني عن أحلامكم وذاك العش الذي تحلمون ببنائه...

كانت جميلة وشهية ومغرية لدرجة أنها أغرت الموت على عجل، هل هذا حظ الأشقياء من الحياة، حرام وألف حرام، أنا سأفقد

عقلي لاشك، لأن ما يحدث لا يمكن لأي عقل أن يستوعبه، فألف لا، تقابلها نعم واحدة.
لا .. لكل شيء، لكل الظلم والقهر والخيانة والعذاب والكذب والرحيل والغياب والتشرد والحرب والدم.
ونعم للحب .. أما كان الحب هو السلام الذي دعا الله إليه، فكيف تخالف إرادة الله باسم الدين، وكل ما ينسبونه إليه كذب؟
ينهض من مكانه فجأة ويتجه إلى الغرفة التي خرجت منها حال دخوله، أتبعه بنظراتي ومن ثم أنهض وأتبعه بكلي. بقلب منهك حد الاحتضار، ارحمنا يا الله...
يقبل وليد وهو نائم ويقول لي من دون أن يلتفت آخر كلماته
- لو حصل ومت، أمانتي لديك أمي والوليد فلا أغلى على قلبي منهما، اطلبي إليها أن تسامحني فأنا عاق لا أستحق رضاها، ولكن أرجوك اطلبي منها أن تسامحني.
يولي ظهره مسرعاً، وأصرخ به، ولا أسمع سوى صوت الباب يغلق من خلفه، أخرج إلى الشارع من دون وعي وأصيح هيثم بأعلى صوتي وأرى الناس تتجمع حولي كالأخيلة ويختفي كل شيء في الظلام.
هذه هي الحرية العاهرة التي قدمتنا للموت أحياء نسير إليه بملء إرادتنا غير آبهين به، وكأن الموت اكتسب قداسته على هذه الأرض المتخمة بالخيبات التي تثقل تلك الأرواح الطاهرة التي

اختلفت في مبدأ الحياة واتفقت على مبدأ الموت وامتزجت الآمال بالآلام...

أيها القدر، إلى أين تسير، ألا تتعب، ألا تكل قدماك من المضي إلى المجهول من دون أسف ومن دون أن تلتفت خلفك؟ قتلتنا بعنادك هداك الله، قف للحظة أريد الحديث معك، أريد أن أشرح لك وجعي، أريد أن أقدم لك الحجج أنه لا ذنب لي أنك قدري، أريد أن أقتص منك ألا يحق لي ذلك؟ كيف تفعل بي كل هذا وأنا من دون إرادة؟ أتبعك مسلمة بكل ما تقول وتفعل، لا خيار لي بوجودك ولا قرار لي بعد قرارك، أيها القدر الأبكم الأعمى والأعرج، أيها المسخ، كل ما فيك أكره، فلماذا أتبعك، لماذا ؟، فاقدة الإرادة معك ؟...

أفتح عينيّ والأجهزة لها طنين في أذني وكل شيء يشي بالحزن، تعبر الأحداث كشريط فيديو سريع بثوان، فأجفل وأعود للصراخ، هيثم يا ملاكي الصغير، يا آخر الرجال أي أنت ؟.

تدخل الممرضة تحمل إبرة في يدها وتطلب مني أن أهدأ، كيف أهدأ وهل يستطيع قلبي المتخم بالحزن أن يكنّ ويهدأ؟ هذا شيء مستحيل، ما هي إلا دقائق وأستسلم لمفعول المهدئ وأتفحص الغرفة بعيني وأقول لها بإعياء أريد رهام، اتصلي بها على هذا الرقم .. وأستسلم للنوم.

التعاسة يجب ألا توصف ولكنها جزء من ذلك العمر، بل أغلب ما ادخره العمر، أين كان ذلك مخبأ لنا ؟ لو أن لنا حق اختيار الحياة والموت لاخترنا الموت لأنه أرحم من حياة تقتل فيها في كل لحظة،

تموت وتموت بك معالم الحياة وكل ما تعلمته كإنسان، أدرك متأخرة بأن الحيوانات أجمل وأرحم منا بكثير، على الأقل لا تفترس أبناء جنسها، فهي تؤمن بقانون الجماعة أكثر منا وتمتلك الوفاء والإخلاص لبعضها أكثر منا...

أكتشف أننا أبشع مخلوقات الأرض...

وما فائدة هذا الاكتشاف ما دمنا وضعنا الجثث فوق بعضها لنهرب من مخالب الموت التي أطبقت على رقابنا؟ وهذه المرة الموت هو الإرهاب بتلك الصورة البشعة، أتصوره جسداً قذراً ورائحة نتنة وعينين حمراوين لأنه يشرب الدماء عند العطش، ووجهه أسود حالك ومخالبه حادة كالخناجر وله أقدام تسحق الأزهار والفراشات بكل وحشية، فهو الموت القادم إلينا من الغرب ويريدون لنا أن نعشقه.

لم تترك لنا الحياة أي خيار، نحن مسيرون على أجهزة تحكم ربما إدارتها من مكان بعيد خلف المحيطات والبحار، نتحرك كالدمى لا مشاعر لدينا. صناديق جوفاء تسمع صدى إيقاعات الحزن بداخلها فقط، يتودد الموت لنا ونحن نستسلم لمكره، وهكذا تمر أيام الشقاء بالإيقاع الساخر نفسه.

أكثر ما كان يقتلني بخنجر الذنب ماذا أقول لأمي ؟

كيف لها أن تتقبل طعم الخسارات؟ أصارع الثوان بقلب مثقل بكل أنواع الهموم، لشبح حفر قبره في الماضي، وهو يعلم ما ينتظره من أقدار لن تتغير، حوله الوطن إلى بائع متجول يبيع

الكلام المسموم بالوجع، يبيع الكلام ويشتري الكلام وهكذا ستمضي أيام التشرد بلا شك.

الإنسانية ... تلك الكلمة التي سقطت من قاموس الحياة، شوهتها الأكاذيب وأياد الظلم، وأصدق تلك الأكاذيب التي لشدة كذبها تصدق، صدى الوحدة قاتل، وموسيقى السكون، تتغير الأزمنة والأمكنة ويظل ذلك الصدى يباغتك من عمق الذاكرة، نبحث عن وطن ونحن نعبر بحر الدمع المالح، نعبر دهاليز الوجع والألم وعواصف الشوق الآثم، نعير ذواتنا الممزقة وحظنا العاثر، نترك وطن النور والشمس ونتأهب لاحتراقات الرحيل، كان ذاك الوطن بوصلتنا التي لم تخطئ..

نتأمله اليوم بشرود، فلا نراه كما كنا نراه، نعيش به ذاك التشرد، نحن طيف وظل، بين الواقع والحلم .خيط خفي لا نكاد نراه، لا نستطيع أن نعيش الحلم في الواقع، ونخشى حمل الواقع إلى الحلم فيفسد جماله، كيف أنتهي من كل ما بدأ بداخلي ولم ينتهِ.

أنا ملكة في ممالك الحزن الممتدة على مساحات الذاكرة...

أجول بعينيّ أتفحص المكان ذاته، يقع بصري على رهام، تمسك يدي بدفء وحنان وعيناها تتلألأ بهما دمعتان حائرتان، نحن تجردنا من الأبجديات التي سممت أسماعنا، نتحدث لغة القلوب المنكسرة، أفهم نبضاتها وتفهم نبضاتي، نواسي قلبينا، تفهم ماذا يعني الفقد ... وما هي آثار الشوق...

تطالبني أن أتماسك وألملم جراحي لنغادر بأسرع وقت فكل مشفى هو مستهدف من قبل الطيران، لا تريد لنا أن نموت ولا يبقى لنا أثر ولا ندفن في قبر يحمل شاهد عليه تاريخ الميلاد وتاريخ الوفاة، ما أصعب أن تحلم أنك جثة مكتملة، في وقت امتلأت سماء المدينة بأرواح غادرت، جثث متناثرة في كل الأركان، تجمع كبقايا النفايات في أكياس سوداء ليتم دسها في مقبرة جماعية تجمع الأهل والجيران الذين كانوا قبل الحرب، يجلسون على الأبواب يتبادلون أحاديث الصباح والمساء...

بدأت المدينة تخلو من سكانها بالتدريج، فالضيق الذي يعيشه الناس لا يشبه أي ضيق مضى أو سيأتي، بدأت المدينة تبتلع ساكنيها ولا يبقى أي أثر للأشخاص المختفين، نحاول عبثاً تقصي رائحة أجسادهم ولكن لا أثر يذكر.

توسلت إلى أنذال كثر كي يأتوني بخبر عن هيثم ولكن جميعهم كانوا ينقلون إلي الجواب نفسه، لا اسم له عندهم، فينتفض قلبي من الفزع، والأحاديث كانت كثيرة حول ما يحدث داخل سجونهم وما يؤول إليه حال الداخلين من الشباب، عندما نسمع القصص، تجبرك الصدمة أن تصمت ولا تثرثر كثيراً.

"مرني حلم، بس أكحل عيوني بشوفك"..

كل الماضي بات أحلام وأوهام، أو خرافة وأسطورة قد تتناقلها الأجيال القادمة، ربما يوثق التاريخ مصداقية ما حدث، هل سيزورون موتك أيضاً ؟ هل ستكون مجرد عدد في إحصائية حرب؟

هل وجهك الجميل مجرد سراب عبرنا إليه ولم نصل ؟...
من أنت بعد الموت ؟
من أنت بعد الحرب ؟
كوكب وقمره غادرا هذا الفلك إلى فلك آخر، ما اتسع هذا الفلك لذلك الحب الطاهر، ما اتسع لكل ذاك النبل وصدق وتلك المشاعر.
يا ملاكي...
مررت بمحاذاة الحياة، ما مررت بها، تهرب كالماء من بين أصابعي مهلاً يا صغيري .
لا أعرف كيف يجري الخاسرون في الحب خلف الوهم.
أنا مكسورة الجناح من بعدك، لا خيارات ترضيني . من أعطاك كل هذا الجمال ؟هل هو الموت حين يقترب؟ مازال وجهك منارتي، يسكن نورك عينيّ، يمتلئ داخلي بك، أفيض شوقاً إليك..
كيف أرى العالم من دونك ؟
بات لوحةً رمادية القلب يا ملاك قلبي...
كيف نكون ذاك الحب المشتهى وسط الموت، الذي دفن بهجة الحياة؟ وكيف أعبر محيط الجنون من دونك، أو من خلالك وأنا لا أمتلك الرياح؟ من يمنحك حق الغياب في عمق احتياجي لك؟ أنا أعشق كل تفصيل بك، أنت تعلم كيف تبلسم جروحي، لا بلسم شاف بعدك، وهل تعلم أن لصمتك نغم يجتاح سكينتي معك؟ وتلك هي المدينة التي سكنت فينا بعد أن رفضت أن نسكنها،

تخوض معاركها مع الجهل، وهي على الرغم من بؤسها ثائرة عليه.

تلك المدينة تحت مرأى العالم تغتصب، تفتح ساقيها للمارقين خلف الإنسانية، أولئك الذين يشبهون الوحوش أكثر من البشر، ونحن نتلذذ بمرارة الموت، ما أبشع طعم العجز واليأس..

سأسكب وجعي في بحر الظلمات عله يهدأ ويكف عن ابتلاع السفن العابرة إلى مراسي الأمان والهاربة من الموت المحتم، أدركت مهزلة الحياة عندما تتعطش الأرض للدم، ترتشف بكل شراهة آخر قطرة، نحن قرابين السلام إلى ممالك الغرب.

أكتبك، وأخشى الوشاية من حبري وقلمي وحرفي.

أسكنك، وأنت ساكني ومسكني وسكني.

أعشقك، وأنت ملكي ومالكي ومملكتي.

ما تلك المفارقات أن نرحل معاً؟.

سراب وطيفه .. سراب وطيفه .. ليل ونجمته.

كانت رهام أنيس وحدتي وغربتي، وفي حضن مدينتي أتخمتنا غربة ونحن في حضنها، تأتي في كل مساء تحمل حاجيات البيت وتدخل إلى المطبخ تعد الطعام، تنقل لي أخبار الموتى والقتلى الذين لقوا حتفهم جراء الطيران، وتظل تقول لي : "اللي يشوف مصيبة غيره بتهون علي مصيبته، بيت فلان ضيع عيلة كاملة، احمدي الله على هالحال"

نعم .. باتت هناك مصائب صغرى ومصائب عظمى، من يفقد واحد ليس كمن يفقد خمسة أو سبعة أو عشرة، الموت صار بالجملة يا جماعة من يزايد ؟...

أجل حالنا هو مضحكات الشدائد.

في غمرة ما تقوم به وبروح الدعابة التي تمتلكها تخفف بها عن قلبينا سقم الحياة التي باتت كقنبلة موقوتة وجميع من في المدينة في حالة تأهب لانفجار طارئ، مشدودي الأعصاب متشنجين، أما هي فقد كانت تفتعل لنا الفرح افتعال، بتقاسيم وجهها الطفولي دائم الابتسام.

- "نيالك .. شلون تمتلكين القدرة ع الضحك؟"

- "الابتسامة بوجه أخيك المؤمن .. صدقة. مو هيج يقولون الأخوان؟"

تضحك ونضحك معها كأننا نسخر من هذه الحياة البائسة، أو ربما هو نوع من التعويض عن حالات اليأس والفراغ.

أصبحت الناس فاضية أشغال ومنهم من نسي مهنته كرهام، شعلة نشاط تمارس مهنتها بحب وشغف واليوم جليسة البيت تتنقل فقط بين المطبخ وغرف النوم والصالون، بينما كانت سابقاً تتنقل من مشروع إلى آخر، كانت تقول لي: أشعر بالملل من جلوسي في البيت، أراني جارية لهارون الرشيد في قصر البنات. تضحك ساخرة، واليوم هي جارية عنوة عنها لتلك الحرب العاهرة التي جردتنا من جواهرنا وأرغمتنا على أن نكون جواري وأعادت عهد الخلافة بأبشع صوره.

صديقتي، وحبيبتي وأختي، وأمي في وحدتي، غاليتي رهام، أنت عالمي اليوم، كل عالمي الذي يفتح ذراعيه لي في مخاض حزني وألمي، كيف أكافئ هذا العالم العامر بالحب والإنسانية المليء بالطيبة والحنان، الذي يمنح من دون انتظار مقابل؟.

تاجروا كثيراً بكلمة إنسانية على مواقع التواصل الاجتماعي، وركزوا على الأحاديث التي تصور إنسانية الغرب وتحقر فقدان العرب للإنسانية، جعلوا مجمل حالات اللجوء وسيلة إعلامية دسمة كمن يقول للذين لم يهربوا، تعالوا سننقذكم من وطنكم، سنقدم لكم الديمقراطية على طبق من ذهب، سنوفر لكم الأمان الذي أفقدناكم إياه، وسنتحدث كثيراً عن الحرية التي صدرناها لكم مغلوطة، أرضكم غير جديرة باحتضانكم، وأوطانكم عاجزة عن تحقيق أحلامكم، تعالوا...

أما أنا فأريد أن أقول للغرب عامة، وللعرب صناع الحرب خاصة: أنتم تعالوا..

في قلب صديقتي وطن كامل متكامل، ينبض بكل أنواع الحب والأمان، أمارس حريتي من دون خوف ولا أخشى في كلماتي لومة لائم، تعالوا قبلوا يد الأمهات التي صنعت أوطاناً وربت رجالاً، وغرست كل الفضائل التي انتزعتموها بكافة الوسائل، بكل بشاعة من قلوب رجالنا، وغيرتم جغرافية العالم، وسرقتم القمح وصنعتم لنا الخبز لتوزعوا لنا الفتات فنرضى من دون احتجاج، أنتم من حول ابن النعمة لجائع وعريتموه من ثيابه وعقائده

وألبستموه ثيابكم البالية وعقائدكم المزيفة مادام كل هذا الخير فيكم، لمَّ لم تمنعوا الحرب ؟.

الحرب مجرد دعاية وإعلام عاهر يزور ويغيب الصور بحسب مقتضيات المصالح الاستعمارية، والعرب ينفذون ذلك بقلوب راضية عن كل ما يحدث وما سيحدث، لأن ما سيحدث أبشع بكثير مما حدث والله المستعان على زماننا القادم...

ضبط النفس وحبس الأنفاس عادة يجب التحلي بها وأنا أقضي آخر أيامي في مدينتي الغارقة ببحر من الدم، جهزت حاجياتي من ملابس وأوراق هامة دفنتها بين ثيابي الخاصة خشية التفتيش، واتفق مهند مع مهرب لينقلنا إلى خارج المدينة باتجاه ريف حلب، ومن ثم لأنتقل إلى دمشق، رتبت كل شيء ووضعت كل أغراض بيتي وأغراض بيت أهلي في قبو لأحد الجيران وتولى مهند تأجير البيت، ولحظات قاسية كنا فيها كمن يغوص إلى عمق بئر مظلم وتتقطع أنفاسه يشحذ ذرة الهواء ولا يجدها، فيقترب من حتفه ولكن النهاية تكون بداية المجهول، الموت هو بداية لعالم مجهول الملامح.

يسكنني يأس وخوف يتناوبان علي فيثقلان جسدي، ويزداد تعبي بحيث لا قدرة لي على الصمود.

يتسرب صوتك إلى عمق جرحي، أطارد صداه، أجدني عطشى لرذاذ الحروف وأمطار الكلمات، بات لصمتك لحن القيثارة الأخير، كسوناتو الجنائز لبيتهوفن. أحتضن الحلم، يذوب في متاهات قلبي المتعب، يتحول إلى جرعة من الشوق والوجع، وإلى قليل من الصبر الذي مذاقه كاسمه، كيف أرتب الحياة من دون

وجهك الهارب؟ كيف أرتب واحات العشق النائم؟ كيف أقتل الوقت من دون حضورك؟ أيها الساكن المهاجر، أيها اللذيذ المشتهى رغم الغياب، أعرني جفاف عينيك، وشتاء قلبك، وصمت كفيك، أعرني قليلاً من لا مبالاتك، علي أستطيع قياس المصادفات بحسب تفاصيل اهتمامك، أعرني قليلاً من الجفا، أعرني مفاهيم الأشياء التي فقدت ماهيتها، فأنا بت أجهل ماهية الأشياء، تعلمت فقط لغة الفقد، أبكيك في لحظات ضعفي الإنساني كالثكلى التي فقدت طفلها فلا تعرف السكينة درباً لقلبها الفزع، أشتاقك كخريف يعانق آخر غروب لصيف عابر...

كم رجوتك أن تقتل الحنين ما بيننا.
وأن ترجم الشوق بحصى الغياب المخلص.
وأن تشنق الحروف المبتهلة الذكر بوصلك وباسمك.
أرتل قوافي الذكر والذكرى بروح العاشق الأوحد.
الهاجر لكل هذا الكون .. إليك وحدك..
هل تعلم.. ؟
أن طيفك هو الروح التي تسكنني .. لا روح لي من دونك...

"العين تبصر من تهوى وتفقده
ناطر القلب يخلو من النظر
إن كان ليس معني فالذكر منه معني
يراه قلبي وإن غاب من بصري ([10])

---

10 ـ الحلاج.

أذكر ذاك المساء .. لا يشبه أي مساء مضى من مساءات الألم، هو أشبه بكابوس يضيق القلب به ذعراً، محفور في ذاكرة الوجع، في متحف الذكرى المظلمة، لا يشبه أي يوم عرفناه وقاسيناه من ثقله، وكأنه الصراع بين الليل والغروب، بين الظلام والصباح، ما أسرعه، ما أقساه، ما أظلمه بينما نجلس أنا ورهام في مجلسنا كالعادة مثل أي مساء، بدأ قصف عنيف للطيران، وبدأت أصوات الانفجارات تعلو، والجدران والأبواب تهتز، الأرض تميد بنا زلزال يجتاح ذاك الهدوء، هذه المرة قريب جداً منا، ارتجفت قلوبنا فزعاً لأول وهلة ومن ثم استعدنا إدراك الواقع، أسرعت رهام إلى الهاتف الأرضي لتتصل بعائلتها وتطمئن أن القصف بعيداً عن بيتها، تحولت الثواني إلى دهر بأكمله، تتصل ولا أحد يرد.

- هل أطلب الرقم الغلط...

- أعيدي الاتصال، تأكدي.

تتصل ويداها ترتجفان ولا أحد يجيب من جديد.

- مستحيل هذا هو الرقم، محفور في قلبي قبل عقلي .

- دعيني أحاول ربما لأنك متوترة أخطأت الرقم.

أطلب الرقم وقلبي يدعو أن يستجيب لندائنا أحد، فلا أحد يرد...

- رهام حبيبتي لا تخافي، ربما نزلوا إلى القبو.

- أي قبو؟ لا يوجد في عمارتنا أي قبو.

من بين يداي كعصفور جريح، تنتفض من دون غطاء يستر رأسها، تركض كالمجنونة نحو باب المنزل.

- رهام كيف تخرجين سافرة؟ تمهلي..
أركض باتجاه ملابسي، ولا أعرف هل هي ارتدتني أم أني أنا ارتديتها؟ أحمل ملابسها بيدي وأتجه نحو الباب وأجر الوليد بيدي الأخرى. كأنه يوم الحشر، الناس تملأ الشوارع والقصف مستمر، والناس تركض في كل الاتجاهات ولا تعلم أين تهرب وكيف تنجو من الموت الذي تمطره السماء. السيارات تمر بسرعة جنونية ولا أحد يكترث بأحد ولا أحد يعيرك أي اهتمام، ورهام غابت في الزحام بين حشود البشر في تلك الشوارع..
حاولت اقتفاء أثرها ولكن من دون جدوى، لم يبق أمامي سوى أن أسلك الطريق المؤدية لبيتها، وأنا أقف تارةً عندما يبدأ القصف وأسير عندما يهدأ والشظايا تمر من أمام أعيننا كأنها قطعان وحوش نهمة تريد الفتك بالبشر في تلك المدينة المنكوبة وصراخ العامة كأنه يتأتى من جحيم يحترق...
تشدني الأرض إليها بقوة، بل وتربط قدميّ بحبال الخوف، أحاول تخليصها بصعوبة وكأني أغوص بطين لزج يجرني نحو باطنها، أحث نفسي وألومها على التباطؤ، أتخيل ما هو حال رهام ؟ ..!!ما هو حال أسرتها ؟.
المسافة ما بين بيتها وبيت أهلي لا تتجاوز السبع دقائق، بمجرد عبور الشارع الرئيسي والحديقة أكون اجتزت ثلاثة أرباع المسافة ولكن الدقائق السبع تحولت لساعات قاتلة لدهر بأكمله، والطريق طالت بحيث بدت أنها الفاصل بين السماء والأرض.

لا أرى سوى الأدخنة تتصاعد لتتحول لضباب أسود يبتلع المدينة، والرعب سمة الشارع، المشهد مرعب، تمر السيارات شبه محطمة ودواليبها من دون هواء تسير على الإسفلت، يغطيها بعض الدماء وبقايا الأعضاء البشرية المتناثرة، المتطايرة بسبب ضغط الانفجار وقوته.

اللهم سلم...

اللهم ارحم أهلنا...

اللهم أجر مصابنا...

هل الجحيم نزل على هذه الأرض التي لم تعهد غير السلام ولم تعرف في تاريخها الحديث غير البساطة والمودة والحب ؟ تعبرني صور الموت كشريط سريع العرض، وجوه مألوفة ووجوه غير مألوفة، أحباب أعرفهم وأصحاب. الموت جعلهم أقرب إلى قلوبنا مما كانوا عليه وهم أحياء وكأن الموت مناسبة جيدة لاختبار حب من كانوا معنا ثم رحلوا...

تتلاشى الملامح القديمة للمدينة لترتسم ملامح جديدة يكسوها الخراب وصور الموت المتعدد.

ليت الزمان يتوقف، اكتفينا وجعاً، ساد صمت رهيب بعد ذاك الزلزال، أظن أني فقدت رشدي، يشدني الوليد من أطراف عباءتي: أمي، أمي، لنعد إلى البيت...

- حبيبي، أريد أن أطمئن على الخالة رهام وأسرتها.

- لكن الدماء تملأ الشارع وأنا خائف.

كأنه أعادني إلى الواقع بعد غياب لحظات

ـ نعم، لكننا سنصل، لا تخشَ شيئاً.
عندما وصلت أول الشارع انقبض قلبي وتسارعت ضرباته، تمنيت لحظتها لو أفقد بصري كي لا أرى ذلك الدمار، اختفت ملامحه الجميلة أكاد لا أعرفه لولا وجود بعض "القارمات" المعلقة على الجدران التي سلمت من الطيران، كيف أقترب، سيارات الإسعاف تنقل الجثث ومجموعة من الشباب تبحث تحت الأنقاض والنساء تصرخ وجعاً وتتلوى حافيات من دون أغطية، الدماء تسيل من أقدامهن،أفتش بين الوجوه عن وجهها الجميل لا أراه، تكاد قدماي تتهاوى. لم تعد تقوى على حملي، أدركت حجم الكارثة بقلبي قبل عقلي، ها هي بنايتهم مقصوفة يلعب بها الخراب، أسمع نحيب صوتها يغتال مسامعي ... نعم هي...
ـ أطفالي هل أنتم نيام ؟ ...استيقظوا حان وقت الطعام، حان وقت الذهاب إلى المدرسة، استيقظوا يا شموعي الأربعة، استيقظ يا سندي يا رفيق عمري، يا أمي يا أبي، من ظل لي بعدك؟ أريد أن أشتم رائحتكم للمرة الأخيرة، أريد تقبيل جباهكم الطاهرة، أريد أن أسترجع صوتي بأسمائكم، أريد أن أبني خيمة على رؤوسكم تحميكم من هذا الركام، انهضوا، أناديكم، هل تسمعون ؟
ما أقساكم، لمَ لا تردون ؟
تحفر بيدها في الركام والدماء تخلل أصابعها، كلبوة مجروحة تدافع عن أطفالها ما أقول لأم ثكلى وأرملة هرمت بلحظة؟ ما

أقول لليل الذي حل ظلامه على قلوبنا؟ ابكي يا جريحة الفؤاد هذا المصاب، عاتبني كيفما شئت، شاء القدر ما لم نشاء.
لم نعد نحتاج إلى مشفى يداوي جراحنا، نحتاج لمدينة كل من فيها فاقد نفسه يسير فيها بلا هداية ولا رشد، نحن مسلوبو الإرادة والعقل، صدقت إحدى دول الخليج الخائن عندما قالت: لا يمكن للسوريين أن يعيشوا بيننا، لأنهم يعانون من اضطرابات نفسية.
هذه حقيقة، ولكم الفضل الأول في حدوث هذا الخلل وتلك الاضطرابات، نعم، فقدنا عقولنا ولكنا لم نفقد الإنسانية مثلكم، كان الله بعوننا يا عرب، أن تنجو من عاصفة اقتلعت البشر والحجر أمر رهيب، تتمنى صديقتي وأختي الوحيدة في هذه المدينة لو أن الموت تذكرها مع عائلتها، كان أرحم لها بألف مرة.
أن تعود وكأنك وليد اللحظة، يذهب العمر بأكمله أدراج الرياح وتعيش فقط مع ذكرى، هي روح أخرى تسكنك . بل هي الروح التي تسكنك، رهام جسد فقط، تكاد تكون بلا روح، فقط تتنفس هذا الهواء الفاسد الذي أوجعنا أكثر بالحياة من خلاله، ليته ينقطع وتكف تلك الأعضاء البالية عن العمل، ما الفائدة من حياة في كل يوم تفقد فيها عزيزاً ومحباً؟ ما الفائدة من حياة تحضر لك نكبات تالية؟ تتعاقب عليك كسوط الجلاد الذي لا تحمل ضرباته أي رحمة.
نلملم خيباتنا ونجمعها في صرة من ذكريات لنعبر بها جدار مدينة تتمزق، لن أمضي وأترك هذه الثكلى وحدها، أصبحت من هذه اللحظة مسؤولة أمام الله وأمام نفسي عنها...

وينطق لسان حالي: جميع الثكالى في مدينتي بحال واحد، يردن أن يعود العهد الذي كان، وأن تنام كل أم على وسادتها، وعدد الوسائد لم ينقص أبداً، كل ولد من أولادها على وسادته ينام.
دع الليل يسترح في جوف الظلام، واغسل قدميك بماء النهر، وارم ذاك الحمل الذي أثقل كاهلك وأنت ما زلت في استقبال الحياة.
- لكن هذه المدينة تحترق، وقد أصابها الجنون، بدأت تأكل أحشاءها، كيف لي أن أقف وأتفرج؟ الجبن في نفسي مخدوش الحياء، لم أفز بالموت و لم ينتصر على رجولتي.
- لا تخشَ على مدينة لها رحم، ينجب كل شهر قبيلة من الرجال، أما أنت يا قرة العين من سيخلفك، أي رحم يجود علي بمثلك إن رحلت؟ سأكون الثكلى التي لا يمر بها الفرح في ساحات الانتصار، إن خسرتك يا فلذة الكبد.
- لم أعد أرى معنى للحياة، هذه الدنيا كافرة، قد حولت الحرة إلى مومس تبيع نفسها مقابل فتات الخبز، تحت وطأة الحصار، هذه ليست حرب بالرصاص والمدافع، هذه حرب قذرة، حرب شرف وجوع، وامتهان لأي كرامة، كيف لهذه اليافعة أن ترفع رأسها وتتحدث عن أي شيء؟ وقد اغتصب شرفها وأذلت نفسها، حولها الوطن إلى قطة جائعة، متشردة، تجوب الشوارع ،علها تجد نافذة نسي أصحابها إغلاقها لتتسلل وتبحث عن دفء...
كان يمكن لها أن تكون معلمة، أو طبيبة أو حتى مديرة، كان يمكن أن تكون امرأة لولا الحرب، لكنها اليوم لا تمتلك تصريح

الإنسانية الذي يمنحها رتبة أنثى، هي مشردة، بائسة، سارقة، فاجرة.

هل تتغير الحياة بدعوة أو كلمة ؟ ..حروفنا المنثورة على بياض الصفحات لو تتحول إلى قطرات الدم التي سالت من أجسادنا لعبرت الأمكنة وأحدثت طوفان ابتلع البحر. نحن نتألم ونتكلم ونصرخ، ونشتم، وهذه الشطآن جثث متفسخة، لا سلام، السلام أكذوبة هذا العصر، هو الخرافة التي وجهت أنظار العالم إلينا، لكنها لم توجه ضمائرهم، مشظى قلبي، البصر لا يعمل البصيرة، وكذلك البصيرة. تزاحمت علينا نوائب الدنيا فيا أسفي على وطني، اللّه، أورثتنا هذه الأرض ولم نعرف كيف نصونها، قد أخطأنا التقدير، إذ لم نحرسها، ومع هذا، لا تحمل نفسك الوزر وحدك، كلنا مذنبون، اللّه لا يكلف نفساً إلا وسعها...

ـ تجذبني الجهات وقد تقطعت أوصالي، وقلبي مدفون هنا تحت جثة النهر، كيف أعبر، لا وجهة عندي، في زمن الرجولة امتهان ليس أكثر، أنت نجار أو حداد أو جاسوس أو خائن، ليس مهماً كل هذا، المهم أن تكون رجل وهذا أمر عضال، يكاد لا يتحقق وأنا اليوم أمتهن الهروب فأنا لست رجلاً، أنا هارب، سقطت عني الرجولة مذ غادرت نفسي.

ـ البشر، يا وجع الروح، لا تتشابه بالصور، ولا تتشابه بالقلوب، ما عادت العين مرآة القلب، على العكس العين قبل اليد تغتصب، وتسرق منك ذاك النور الذي وهبه اللّه لك، وتبعث هذا الظلام...

لا سلام، يعبر دمار الروح فوق هذا الركام، شوهتنا الحروب، كيف نعود إلى ذواتنا؟ كيف نعود إلى الأوطان؟
جمعنا خيباتنا والفجائع كلها ونوينا الرحيل، لا نعلم ما تخبئه الأيام لنا من خير أو شر.
إن الزمن الفاصل بين الذكرى والذكرى هو حفنة جمر من موقد الحنين، تنساب كقصيدة للسياب..
يا فرات أعرفتني. ؟ عصرتني الأيام والأحباب.
حسبي، صرت شراباً تدور بالأكواب، البعض يسكر مني والبعض في يذاب...
وحكاية للدكتور عبد السلام العجيلي عندما تحدث عن قريته التائهة في عمق البادية، تجول كدمعة تحاول أن تنهمرمن دون أن يلحظها أحد، مسكونة بروح الصخب، تحملها كأمواج البحر، تنتهي من موجة لتلتقفك موجة أخرى تزيل عبء المسافات بين النبض والحلم .. ذا الحلم، حلم مدينة ما كانت تعرف الهدوء، مشاغبة ومشاكسة تجذبك كي تتواطأ مع الليل وتشعل قناديل السماء بابتسامات من تحب، أحتار كيف أصفها، صيفها كمواسم عشق وافر الغلال، دعوة مفتوحة للحب، مدعو لشرب" كاسة جاي "مع الأحبة، أبلغ الهموم تتلاشى في جلسة سمر على رصيف البيت مع الأهل، مع كل ضحكة يتبدد عناء الحياة ، هي مثل نص لن يتكرر ولن يكتمل...
لم يكن العزاء عزاء ولا المأتم مأتم، بل شيئاً أكثر إجراماً. اتفقنا مع سائق الحافلة كي نغادر بأسرع ما يمكن، وكأنها محاولة

للهروب من شبح الموت، من ذكرى وجوه من نحب، أرهقتنا الفجائع بل هدت كل عزمنا، قلبي اعتاد السهر وإن غفت عيناي. تقاسيم الليل مؤلمة .. موجعة، يمر عند الناس بالساعات، أما مع قلبي يمر بالثواني، كم هي ثقيلة ومؤلمة، أرهقني السهاد الذي نال من عمري وشبابي، أخشى أحياناً النظر في المرآة، أخالني أرى شبحي ولست أنا، كانت الساعات بعكس مدارها السابق، أصبحت مسرعة كدقات قلبي التي لسرعتها أشعر يضيق يطبق على صدري...

في الواحدة بعد منتصف الليل تسللنا كما اللصوص نحمل من ثمار الدهر حقيبة يد، وتركنا خلفنا كل ما هو يغفو كذكرى في قلوبنا الهشة، ما تخيلت أن أغادرها هاربة، متلبسة بجريمة حبي لها، نترك الغربان تحوم فوقها والجرذان تعبث بأرضها، ونحن اليائسون من الحياة ما تركوا لنا غير خيار الهروب، كم نحن جبناء...

رهام كانت همي الأول، خشيت من ردة فعلها لكنها بدت مستسلمة ومسالمة، ربما في عمقها أرادت أيضاً الهروب من شبح مدينة أكلت أولادها وزوجها، رهام يا باذخة الحزن، يا سيدة الآلام، اغفري لي هذا الضعف.

مشينا كثيراً على أرصفة الموت ودخلنا أزقة الذكريات، ولم نصل إلى قلب مدينة تتقيأ وجعها دماً، هي أشبه بغزالة عبرت هضاب القلب على عجل، مخضبة بحناء المنايا، ما أوجع الفراق والفقد، عام اغتصابها، وعام قتلها وعام فراقها..

رهام .. أترك عينيك هنا على مشارف أحضانها، ودعيها بسخاء الدمع والكثير من الوله...

ما أوجع الاشتياق لمرابع قلوبنا..

صرخت .. يا أهل الدار هل من أحد ؟

أجابتنا أصوات أنكرها السمع، هنا تركت قلبي وهنا تكسرت أضلعي، حين تهاوت مدينتي ولم أستطع أن أقيمها، من تبكين يا يابسة العينين؟.

فالنائمون في أحضانها لم يحص لهم عدد بعد، أراهم مبتسمون للمنية ولا عجب، الأسى علينا نحن من غادرها، نبحث عن أحضان لا نعرف كيف تحتوينا أو تضمد ذاك الجرح النازف فينا، نستحي من خيباتنا وضعفنا المدفون في مقبرة التاريخ، الغريب غريب القبر يا حزينة...

قتلنا العطش لفراتها، لم نرتوِ منه ونحن جيران، كيف حال الغياب عنه..

قد حولوا المولّيا والعتابة إلى عتب.

لا ينفع اليوم لك اعتذارنا يا مدرارة الوجع، يعزفون على جسدك الممزق موسيقا الصلب الأعظم، بلحن بارد تنساب معه رائحة الموت والدم..

في كل مقطوعة تتلاشى وتتهشم الذكريات والأفراح، وأحلام الطفولة على مسرح الفجيعة، يواري خلف تلك الموسيقى غياث المستغيثين.

تحت حجارة الجاهلية الأولى، وتحت رداء الحق المبطن بالحقد والغضب، لم أرتجل عشقي لك، سرت قوافل الشوق مع خيوط الفجر الذي لم يطل، قتلني الظلام في متاهات البعد عن عينيك.
عناء الطريق ما كان همنا لأننا نحمل هموم أكبر منه، أولئك الذين تظاهروا بالمسؤولية تجاه المواطنين هم نفسهم السفاحين الذين قتلوا، نهبوا، شردوا، وأدخلوا المرتزقة إلى بلادنا، لا أحب رؤية أشكالهم المرعبة مهما ادعوا من الإنسانية، غير مؤمنة مطلقاً بأي ادعاء.
الطرق مكفهرة كقلوبنا، يابسة، وقاحلة، تسير تلك الحافلة بنا وكأنها تعبر شرايين الجسد، تركنا خلفنا أطياف من سكنوا فينا للأبد، وذكريات طفولة جميلة وواقع ممزق.
الوجهة دمشق، لا نعرف ما يخبئ لنا القدر من أحداث، جميع الركاب هاربون من واقعهم المؤلم، مشاعرنا متشابهة والأوجاع واحدة، كان هناك رجل مسن بعد عبور حدود الولاية كما كانوا يسمونها يشعل سيجارته وينفخها بألم بالغ واضح على معالم وجهه، طوال الطريق لم يطفئها، تذمر أحد الركاب أربعيني العمر: يا عم . ما أنت رايد روحك؟ .. ارحمنا، والله اختنقنا "..
يجول بعينيه الضيقتين بين الركاب ليحدد مصدر الصوت ومن ثم في وجه الرجل الذي طلب منه أن يطفئ سيجارته ومن ثم يعود ليحني رأسه ويتابع نفث دخانه، في داخله ألم دفين، ومع هذا لم يشعل سيجارة أخرى حتى وصلنا استراحة في منطقة تدعى الزربة في ريف حلب..

دخلنا هذه الاستراحة حوالي الساعة الثانية عشرة ظهراً، كنا نحتاج فعلاً للراحة بعد كل الرعب الذي كابدناه، ينزل الركاب من الحافلة كما لو أننا نهبط من سفينة ضربتها أمواج البحر وسط عاصفة مجنونة ظلت تتقاذفنا الأمواج حتى اعتصر الموت قلوبنا ليعود الهدوء بعد ساعات مرعبة ونحن نحط على شاطئ جزيرة هادئة..

أدخلنا أحد الرجال إلى قسم خاص بالنساء وأحضر لنا مفارش من الإسفنج وطلب الهويات الشخصية لتسجيل كل شخص ما أخذ، كانت الاستراحة مكتظة بالنساء اللواتي جئن من أكثر من جهة، ولكل واحدة قصة مختلفة.

رهام واجمة لم تتفوه منذ وفاة أولادها وزوجها ببنت كلمة، تجول ببصرها بين النساء والأطفال والواجهات الزجاجية المتصدعة بفعل القصف، وهي عبارة عن معرض سيارات مقسم إلى غرف صغيرة يفصل بينها جدران من ألواح زجاجية ملصوق عليها ورق جدران عليه رسومات مختلفة، وتقاسمت النساء تلك الحجرات كل عدة نساء في حجرة، جلست إلينا عجوزان تقتربان من السبعين شقيقتان، تلبسان تراث ريف الرقة، اللون الأسود هو الغالب على تلك الثياب، وتلف الهباري وهي غطاء يضعنه المتقدمات في السن على رأسيهما، وملامح وجه واحدة منهن تبدو حزينة جداً، أخرجن من داخل كيس أسود كانت تحمله بيدها التي تميزت بذاك النقش الأخضر المائل للإزرقاق حبتين من البندورة ورغيفي خبز صاج كأنه محترق الأطراف، وبدأت تنهش حبة البندورة مع

الخبز، وتشرد بنظرها إلى الفراغ، تذكرت نفسها فنظرت إلينا قائلة، تفضلي يا بنتي شاركينا غداءنا المتواضع، أحرجت من كوني، أطلت الحملقة في وجهها لأرد عليها:

- شكراً يا خالة، ألف عافية.

أسأل الوليد:

- ماذا تريد أن تأكل؟ هناك في مطبخ الاستراحة كل ما تريد، أخبرني ماذا تشتهي؟.

يرد بملل وتذمر: لا أريد شيئاً، أريد أن أنام قليلاً. أنهض بتثاقل وإحباط وأتوجه نحو البوفيه في داخل الاستراحة والتي خصصت للرجال فقط، نسيت نفسي لم أضع النقاب على وجهي وإذا برجل ملتحٍ يصرخ بي

- أحسني غطاءك.

لم أنتبه ظناً أن الكلام موجه لغيري، لكنه عاود الجملة نفسها : أحسني غطاءك.

التفت نحوه لأسأله :

- من تقصد ؟

- ومن غيرك في الساحة ؟

أنظر حولي، الساحة خالية من العابرين. لا يوجد غيري، يرتعد قلبي فأتذكر أن هذه المنطقة خاضعة لجبهة "النصرة" وهي بعقائدها لا تختلف عن تنظيم "داعش" كثيراً، أسرع لأسدل الغطاء على وجهي، وأعود أدراجي إلى قسم النساء وضربات قلبي تتسارع رعباً منه، أجلس وأحتضن ابني ممسكة بيد رهام عل

ضربات قلبي تهدأ ، ما هي إلا دقائق حتى عادت أنفاسي إلى سابق عهدها ، لاحظت رهام رغم صمتها الذعر الذي بدا على وجهي، شعرت بحرارة يدها تضغط على يدي، وكان طفلي يغط في نوم عميق على صدري، سمعت النساء تتحدث أنه لم يعد هناك مواصلات تنقلنا إلى المدن الأخرى، جميعها تنطلق في الصباح الباكر وسنضطر للانتظار حتى الصباح للمغادرة، أثناء تبادل أطراف الحديث دخلت امرأة مع ابنتها ألقت نظرة في الحجرة ودخلت لتأخذ ركناً في تلك الزاوية وتجلس بصحبة ابنتها وقد بدا عليها الإنهاك الشديد..

أنهت الجدة غداءها واحتست قليلاً من الماء وتوسدت ذراعها على إحدى الأغطية لتأخذ غفوة صغيرة، وشقيقتها تسند ظهرها إلى الحائط..

تمر الساعات بطيئة ومملة مع حركة الأطفال وصراخهم في الصالة ، استيقظ الوليد من كثرة الصراخ والضجيج متذمراً .

ـ ماما أريد أن أنام رأسي يؤلمني من الصراخ.

ـ لا عليك يا حبيبي، أطفال ماذا أقول لهم، عيب أن نمنعهم من اللعب هم أيضاً ضجرون ويشعرون بالملل يريدون أن يلعبوا قليلاً.

ـ ألا تريد أن تأكل؟

ـ وماذا يوجد حتى آكل ؟

ـ ماذا تريد يا حبيبي ؟

ـ أريد شرائح المرتديلا والمخلل إذا وجد.

ـ طبعاً سيوجد ، لحظات وأرى من يجيب طلبنا.

- ماما لا تذهبي، أنا سوف أذهب للسؤال.
- أوو حبيبي، يا كبير قلبي، حسناً خذ هذه النقود واذهب .
أمد له يدي بمبلغ من المال يكفي لشراء ثلاث سندويشات مع علب عصير وعلبة ماء، يمضي معتداً بنفسه وكأنه سبق عمره وأصبح رجلاً بلحظات، ما هي إلا دقائق وعاد إلينا حاملاً السندويش وعلب العصير وأشياء أخرى، آه .. يا رجلي اللّه لا يحرمني منك.
- تفضلي ماما .. تفضلي خالة رهام.
أناول رهام حصتها ونظراتي كلها رجاء، لكنها تقضم لقمة واحدة لتدمع عيناها وترمي من يدها تلك السندويشة، أضمها إلى صدري وهي تنتحب بألم، أشفقت الجدة عليها وغلبها الفضول فسألت:
-" منو مضيعة هالحرة .. تبكي بحرقة قلب؟"
تغلبنا العبرة لنبكي بصمت موجع.
بحلول المساء تزداد الغبطة في قلوبنا، اندمج الوليد مع الأطفال الموجودين، يراقبهم عن بعد وهم يلعبون، وبدأنا نتبادل أطراف الحديث مع بعضنا بعضاً.
تبدأ الجدة تسرد علينا حكاياتها وسبب حضورها إلى هذا المكان تتحدث قائلة:
عند دخول ما سموه بالجيش الحر إلى قريتنا القريبة من منطقة أثريا، هي قرية صغيرة في البادية يقتات أهلها على الزراعة البعلية وتربية المواشي ضمن المنازل، ابن عم ولدي هايل دخل مع كتيبة تابعة لأحرار الشام وكان هناك خلاف بين أبناء العمومة حول بنت

عم أخرى لهم تزوجها ابني لأنها كانت راغبة به وتم النصيب، أما ولد العم الآخر واسمه فهد لم يهدأ له بال ليلة الزفاف، حاول قتل ابني بطلق ناري والله سلمه وتدخل كبار الأقارب وحلوا الأمور سلمياً وانتهى الأمر ومضت الأيام، لما دخلوا الأحرار بلادنا وانتسب إليهم قويت شوكته ولم يصطدم بابني مباشرةً ولكنه كان يتحجج عليه كلما سنحت له الظروف ويحاول إهانته حتى يدفعه لضربه وتكون حجة على ولدي كي يسجنوه، لكنه تحسب الله وظل يتجنب الصدام معه أو مواجهته.

وذات مساء أغبر ونحن نيام جاءت سيارة مجهولة" بيك آب "مليئة بالمسلحين الذين اقتحموا الدار وألقوا القبض على ولدي وسحبوه من فراشه، ونحن نصرخ ونتوسل ولم نستفد شيئاً من تلك الرجاءات، غادروا وتركوا قلوبنا فارغة وأفواهنا صارخة، نتخبط لا نعرف ماذا نفعل، مع حلول الصباح الذي طال حتى أصبح توجهت إلى بيت فهد وطرقت الباب على عجل، فتحت أمه الباب وألقيت عليها سلام عابر وكلي لهفة للقاء فهد وسؤاله عن ابني .

ـ أين فهد ؟

ـ في الداخل، تفضلي .

غابت عني حوالي الربع ساعة وقلبي يعصرني من الوجع، أردت النهوض والبحث عنه في المنزل لولا إحضارها الشاي ودخولها علي.

ـ "سمعت ما حدث يا أم هايل، عساه خير".

ـ أريد أن أتحدث إلى فهد بهذا الخصوص لقد أرهقني الانتظار .

ـ هوني عليك، إنه قادم .

دخل كالطاووس وسلم ببرود، واتكأ في صدر الغرفة، حاولت ضبط أعصابي من باب العمل على المثل القائل:" إذا إلك حاجة عند الكلب ناديه يا سيدي"

- فهد يا بني .. ولدي هايل جاء أناس مجهولو الهوية وأخذوه عند الفجر ولا نعرف له وجهة، أطلب منك مساعدتنا إذا بالإمكان، تظلون أبناء عمومة مهما حصل "والدم ما يصير مية "حفظك الله يا ولدي وحفظ لك أهلك ساعدنا.

.. يرد من دون أن يستقيم في جلسته:

-" جيتك غالية يا خالة أبشري، بعون الله ما أقصر".

تتابع أم هايل والدموع تترقرق في عينيها تكاد تنهمر، ركضت عليه وهمت بتقبيل يديه لكنه سحبها قائلاً:" استغفر الله، حاشاك يا خالة".

توسلت إليه كثيراً ورجوته، ولكي يسكتني ظل يعدني حتى أوصلني لباب بيته وهو ركب سيارته وغادر، وعدت إليه بدل المرة عشرة، ولم نصل إلى جواب شاف، وعود فقط، غيم بلا مطر، حتى تسلل اليأس إلى قلبي وذكروا لي أن الكتيبة التي اعتقلته تقيم هنا في منطقة الحمرة وأرشدوني لقائد الكتيبة وجلست أمام داره حتى جاء في منتصف الليل وشرحت له ما حدث معي وما جرى لولدي وكيف كابدت الأمرين حتى وصلت وأني استدنت أجرة الحافلة التي حملتني.

فرد علي : لم يمر علي هذا الاسم، بماذا أقسم لك، وأعدك بأني سأسأل، ولو حصلت على أي معلومة سوف آتي بنفسي لأخبرك

وأبشرك بالخير بعون الله، وأدخلني لأنام عند زوجته وأطفاله وقدموا لي الطعام، كانوا كرماء طيبين وحاولوا التخفيف عني ومضى أكثر من شهرين ولم يرد منهم أي خبر، وقد أنهكني المرض، فأحضرت أختي معي لنعود ونسأل ذاك الرجل عساه يخبرني شيء، ولما وصلنا داره لم نجد بها أحد، كان الطيران قد استهدفها ولم نجد غير الركام، سألت الجيران عنه وأكدوا لي أنهم لم يعرفوا شيئاً عنه وعدت أدراجي مع أختي، أقلب كفي على وجعي وأسلمت لله أمري، حسبنا الله وهو نعم الوكيل، استودعته الله الذي لا تضيع عنده الودائع. توقفت المرأة عن الكلام وبدأت تبكي بحرقة قلب.

ـ أماه هوني عليك، من منا لم يفقد عزيزاً وغالياً.

أحتضنها والألم يعصر قلبي على تلك الأمهات اللواتي خسرن أبناءهن في هذه الحرب اللعينة وهناك مليون سبب لمليون شاب قد فقدناه.

هذه صديقتي خسرت أسرتها تحت القصف. أحدثها بهدوء وصوت منخفض، وكما ترين فقدت صوابها . لا ألومها يا خالة، عادت إلى الدنيا كما لو أنها اليوم ولدت بلا أهل ولا عائلة ولا سند. هي أصلاً عاشت يتيمة، لنا الله، هو أرحم بنا من الدنيا وساكنيها.

تشهق الجدة قائلة : "يا وليدي الله علي، فاقدة كل عيلتها يا خطية"..

تكمل بعد صمت:" الله يلعن أبو الحرية، هي مي حرية، هي قلة حيا .. بيش أذنبنا يا ربي؟" تتابع تلك المرأة الحديث عن معاناتها

بإحضار ابنتها من تركيا تهريب والعذاب الذي لاقته في الطريق، تتحدث أيضاً بألم تقول : زوجت ابنتي لابن جيرانا ، نحن من حلب ونزحنا إلى اللاذقية وتقدم أهله لخطبتها ومن ثم إرسالها له إلى تركيا حيث يقيم، لأنه مطلوب لخدمة العلم لا يستطيع الحضور، كان طالباً جامعياً سنة ثانية في كلية الهندسة الزراعية حين غادر وأوقف دراسته لأنه كان معارضاً ويخرج في التظاهرات ضد النظام، لم تهتم لهذه التفاصيل، زوجناه بما أنه يعمل ويصرف على نفسه وقادر على فتح بيت، وجهزتها وأخذتها أمه عن طريق باب الهوا تهريب، ولما وصلت لعنده، ومع العشرة اكتشفت كم كان طبعه صعباً لا يحتمل، عانت عنده الكثير وقررت أنا ووالدها أن أذهب لإحضارها وإعادتها ، وهأنا قد فعلت وتعذبنا أي عذاب على الطريق، كدنا نموت لولا لطف الله بنا ، الجنود الأتراك يطلقون النار علينا وقد مات شاب كان معنا والله كدت أموت معه من الزعل عليه، يا صغيري ما حال قلب أمه الآن، لشدة الرعب لم يرجع أحد إليه ليسحبه على الأقل ليدفنه، تركناه خلفنا كما لو أنه مجرد فرخ عصفور ينفض جناحيه وهو يحتضن الموت، بكيت طوال الطريق، أتساءل بأي ذنب يحدث هذا كله لنا؟ والله حرام، نحن لا نستحق كل هذه العقوبات، كثير على قلوبنا كل هذا الهم.

بدأت تمسح تلك الدموع التي تلألأت على خديها التفاحيتين ومدت قدميها لتقول .. آه .. لها ألف معنى، ننتظر الليل وكأن له تلك الأسرار التي لا يمكن البوح بها لغيره، تظل أبصارنا شاخصة

بسقف ذاك المكان، نصارع النوم وليته يتمكن منا وليتنا نستسلم له، النوم سلطان غالبنا في نهاية الأمر، استيقظت على صوت الجدة وهي تقيم صلاة الفجر وتدعو الله بقلب مفتت من الوجع، ما زال الأمل بها، يمنيّها بأن القادم سيكون أفضل، أتمنى أيتها الوالدة أن يكون أفضل، تعبت قلوبنا من الحزن والهم، نحتاج لقليل من الفرح، فقط القليل، ألا نستحق هذا الفرح؟.

أيقظت شقيقتها وسرت مع الفجر إلى وجهتها وتركت في ذاكرتي تلك الصور التي لن تمحى مع الزمن.

دائماً للآلام ذاكرة مشتركة، ذاكرة صلبة، لا تطالها يد النسيان، وفقك الله يا جدة، وفقك الله أيتها الأم المتألمة والفاقدة، كان الله عوناً لك على ما تحملين من هم، كان الله سندك في هذا الزمن الذي قلت فيه المروءة، تتساقط الأقنعة عن وجوه البشر مع مرور الزمن . نحتاج لرؤية وجوه حقيقية غير مزيفة، لا يمكن للخير أن يطيل غيابه، كما لا يمكن للشر أن يدوم.

يأتي صوت من خارج الصالة: المسافرون إلى دمشق، جهزوا أنفسكم، وأوقظ رهام والوليد وأجهز متاعنا لتنطلق بنا الأقدار إلى وجهة أخرى مجهولة الملامح .اللهم خفف عنا عناء المسير.

أتأمل الطريق الذي على مشارف حمص يتزين بالخضرة التي تشرح النفس، وأشجار الكرم يانعة تحت ضوء الشمس، حبات العنب متلألئة تخطف الأبصار كأنها ياقوت وذهب، تنشرح جوارحي وأتنفس الهواء بملء صدري، وأتأمل ذاك السحر الرباني، ثم أعود إلى عمقي الموجوع وأتذكر...

في سكرات الوجع، ذاك الوجع الذي لا يشبه غيره، تنطفئ روحي لتعبر برزخ الآلام، إلى عالم كل ما فيه جامد، أرواح لا أصل لها بك، تحوم حولك من دون أن تشعر بوجودها، أنت الآن طليق لا قيود تحدك، لا إنسانية تخضعك لقانون محتوم، أنت مجرد طيف، طيف فقط .انتهى ذاك التمزق، تمزق تلك الروح وهي في كل ليلة تغتصب، وروح يقتلها الوجع، وروح تبحث عن وطن، هذه الأرواح كانت نقمة على ذاك الجسد، الذي أرهقه التمزق في اللاشعور.

السقوط في هذا العمق الذي يجردك من مشاعرك الإنسانية وحالات الذهول، انتفى معه ذاك الشتات وتلك الأوجاع التي لا تمحوها المسافات المذبوحة بيد اللا قبول، أهلاً بك في اللا رحيل، واللا وجع، واللا حقد، واللا كره، واللا حب...

كل شيء جامد، بارد، حد التجمد وعدم الشعور بشيء .

روح تنفي ذاكرة الرجوع إلى الأمس، إلى العالم الذي تتخيله، لم يعد موجود، ووجوه بدلت أقنعتها لأتفه سبب، واليوم لا تلمحها بين هذه الحشود.

هناك فقط أريد البحث عن وجهك الهارب، أريد أن أسرق الحقيقة من عينيك، ألا تشتاق لعناق روحي أيها الغريب ؟.

تعال خذ من أوجاعي ولو قليلاً، لأطوي سجل الرحيل، وأقيم ثلثي الليل بذكرك، وأنام في الثلث الأخير، اشتاق الكرى لمقلتي، اشتاق الليل لسكوني بعد عواصف الحنين.

الرقص وأنت مجروح على إيقاع المسافات قاتل.

تتلوى من الوجع، وتعود لتنطوي على نفسك، مثل ذاك الكوخ المهجور الذي لا يمر به أحد، أقيم في كل ليلة وليمة لانكساراتي، أرمم أحزاني المحطمة، أفتش في زواياها عن بقايا الأنا ... لا أثر أستدل به على نفسي، كل الأماكن هي أنت يا مسقط قلبي، وكل ذاك الخراب، كيف لي ألا أعشقك ؟، كيف أحسب الأيام من بعدك ؟...

عشقنا هالة تغمر الروح، ما سرُّ اعتناق دين قلبك؟

وأنتِ الملحدة لأي عشق، أثثت حنايا غربتي بالوجد، وزينت أوجاعي بشلالات الدمع، يا نبضي الأوحد لا يغادرن طيفك، أجالس الليل أحرسه، من دونك لا نور يتهادى إلى عينيّ، من دونك أحصي هزائم العشق...

يا رقة القلب.

أيها الغريب ما جاء بك .. أنا سوري وإن لم أكن دمشقياً، فأنا دمشقي الهوا والنفس، أهلاً بك يا نازف الجرح، فالشام شام من لا وطن له.

هادئة رغم ضجتها، تبث الطمأنينة في نفسك، تستقبلك فاتحة ذراعيها وتضمك لصدرها من دون انتظار مقابل رغم قسوتها، إلا أن قلبها يفيض بالحنان ولاشك.

يتهافت سائقو سيارات الأجرة إليك وكأنك صيد ثمين، يعرضون خدماتهم التي تبدو للوهلة الأولى مجانية تفيض بالإنسانية والكرم، مدام وين بتحبي وصلك ؟...

حقيقة لا أعلم أين أذهب..

هناك امرأة تتجادل مع سائق تاكسي، وبعد مناوشات ليست بالطويلة سحبت حقيبتها ونزلت بصحبة ابنتها وهي تقول له:

ـ المشوار قريب لا يستحق كل هذا المبلغ.

قلت في نفسي يجب أن أستفيد من خبرتها. يبدو أنها تعرف الأماكن جيداً. أحدث الوليد :

ـ قف جنب الحقائب وانتبه للخالة رهام، سأرى ماذا يحدث لهذه المرأة علها تساعدنا في إيجاد مكان للمبيت.

ـ مساء الخير.

ـ أهلاً .

ـ أحتاج لخدمة.

ـ تفضلي.

ـ أنا غريبة عن المدينة وأحتاج لسؤال شخص ثقة، أين يمكن لنا المبيت ؟

ـ أوو . تمام، نترافق إذاً

تتابع

ـ أنا شهلا من الدير . أنت ؟

ـ أنا سعاد من الرقة.

ـ أهلاً يا سعاد، تشرفت بكِ.

مدت يدها لتصافحني:

ـ صديقتي سعاد، هناك فندق لصديق من الدير في الصالحية متواضع لكنه يفي بالغرض، هل نذهب.؟

ـ أكيد، أهم شيء أن يكون المكان آمن.

- هاهاها، يبدو أنك لا تسافرين كثيراً، بالطبع آمن، إنه ابن الدير يا عزيزتي، ألا تثقين به ؟
- بالطبع أثق، لكن لا أثق بهذه الظروف.
- معك حق.
- كانت شخصيتها قوية ذكرتني برهام قبل نكبتها، واثقة بنفسها، متكلمة، خفيفة الظل، ناعمة، كنسيم الفرات.
بعد مبارزات طالت بينها وبين سائقي التاكسي اتفقنا مع أحدهم بصعوبة أن يأخذنا بمقابل مبلغ معقول مقارنة مع غيره، كانت شهلا ذكية ومتمرسة في هذه الأمور.
وصلنا وجهتنا المنشودة، كان الفندق متواضعاً جداً، صاحبه رجل خمسيني العمر طويل القامة والطيبة على وجهه بادية، استقبلنا بحرارة، وكان الفندق شبه خالٍ من الزوار، ليس مهم، المهم أن ننام في مكان آمن لحين إيجاد سكن، جرت الأمور على خير ما يرام، بداية جيدة للآن.
رتبنا حاجياتنا في الخزانة. كنا نحتاج للراحة، أكثر من الطعام، أنهكنا الطريق الذي كان قبل الحرب لا يستغرق أكثر من خمس ساعات، بينما عبرناه بإحدى عشرة ساعة، مسافة ليست بالسهلة ومدة زمنية طويلة وثقيلة على النفس، الحمد الله الآن نحن في سلام، تجاوزنا كل الخطر.
نمنا ليلتها كالقتلى لشدة التعب، لم أستيقظ إلا صباحاً عندما تسللت أشعة الشمس من النافذة، فتحت عينيّ أتفقد المكان،

بجانبي الوليد ممسك بيده تلابيب سترتي وكأنه يبحث عن أمان وهو مستغرق في نومه.

وكذلك رهام .. كم يؤلمني النظر إليها، بقيت في سريري من دون حراك .لم أرد أن أيقظهم من نومهم حتى يستفيقوا من تلقاء أنفسهم وسرحت بأفكاري إلى الأيام التي مضت..

أول عمل قمت به الاتصال بوالدتي، بطاقتي الهاتفية ما زالت تعمل، هاتفتها وكلي لهفة لسماع صوتها.

- ماما حبيبتي كم أشتاق إليك .

- وأنا يا غالية، حمداً لله على السلامة .

- طمنيني عنك وعن خالد وأولاده و زوجته .

- الكل بخير، مشتاقون إليك.

دار بيننا حديث دام لأكثر من نصف ساعة بعد أن انقطع الاتصال من جانبي عادت واتصلت بي لنستكمل ما دار بيننا..

كان الحديث ممزوجاً بالشوق والدموع والذكرى وغصة الفقد، هنا تتجمد العبرة في الحلق، لا مجال لابتلاعها أو لفظها لتثير شهية الحزن من جديد، تتظاهر كلتانا أننا بخير، والحقيقة لسنا بخير أبداً.

مضى يومان ونحن مقيمون في الفندق، وذات صباح نزلت إلى الصالة لأتحدث إلى أبي كرم مالك الفندق ليساعدني في إيجاد منزل للآجار، كعادته يجلس على كرسيه المصنوع من الخيزران وهو قديم متآكل تقريباً، لكنه نظيف ومرتب، قد يعود عمره إلى

مئة عام أو أكثر، كان يدخن ويحتسي القهوة، والبؤس يخيم على المكان .

- صباح الخير أبا كرم.

- يا صباح الخيرات سيدة سعاد.

- أحتاج إلى مساعدتك في إيجاد بيت للآجار لو سمحت.

- سيدة سعاد .. ألم يطب لك المقام بيننا ؟ صدقيني الأجرة في هذا الفندق أرخص من أي منزل متواضع في قلب الشام أو حتى في ضواحيها، وأنا لو اعتمدت سأخفض لك الأجرة بحيث تكونون مقيمين وليس نزلاء، صدقيني لن تجدي آمن من هذا المكان.

- أشكر لك عرضك وحسن أخلاقك وكرمك معنا، ولكن هكذا لن نشعر بالاستقرار، لا أريد اللجوء لغيرك، هلا أكملت معروفك وطيبتك وساعدتنا، كما ترى أرعى طفلاً وامرأة لا أعلم ما حالها، تحتاج مني لعناية كبيرة، أرجو أن تراعي وضعنا والظروف القاسية التي جئنا منها.

- سيدة سعاد .. أنا أخوك هنا في الشام وبإذن الله لن أقصر ولن أتوانى في إيجاد منزل مناسب لكم، وأتمنى أن يكون بالقرب منا كي لا نخسركم كجيران ونظل نطمئن على بعض.

- سنظل على تواصل من كل بد، من هو مثلك يستحيل نسيانه سيدي الفاضل، الطيبون يفرضون علينا احترامهم والتواصل معهم.

- لا تحملي هم، بعون الله سأجد طلبك بأسرع وقت ممكن.

- أشكرك سيدي، ومعروفك دين في رقبتي إلى يوم أموت.

ـ أستغفر الله، لا تقولي هذا الكلام نحن أهل في هذه الظروف القاسية على الجميع.

لم يمض أكثر من أسبوع وبالفعل صدق وعده لنا وقد وجد لنا منزلاً مناسباً من الناحية المادية والمساحة، سيفي بحاجاتنا إلى أن يبعث الله الفرج، كان بالغ همي أن أستقر وأبحث لرهام عن طبيب يعيد إليها صوابها الذي فقدته ويخرجها من حالة الصدمة والصمت، فكلما نظرت إليها أشعر بقلبي يحترق وتعبر الذكريات كلها أمام عيني فقد أصاب أنا الأخرى بمرض عضال لما أعانيه من ضغط نفسي.

واعدنا صاحب المنزل في مساء يوم السبت أن يرينا المنزل، ذهبت برفقة الوليد وأبي كرم وحال وصولنا انتظرنا بضع دقائق وكان الرجل بالقرب منا يتصل يستدل على مكان تواجدنا، دلنا على العنوان بشكل مفصل، كنا على بعد عدة أمتار، الحارة هادئة مريحة، كانت قريبة لنفسي، العمارة مكونة من أربعة أدوار والشقة كانت في الطابق الثاني، مضينا خلف صاحب المنزل بصمت وعندما فتح الباب تحدث قائلاً:

ـ أنا لا أؤجر للغرباء ولكن بما أنهن نساء وطفل لوجه الله قبلت ولم أطمع بالسعر، يا رجل حطموا الأثاث ونزعوا حتى طلاء الجدران، ولهذا السبب وضعت شرط التأمين لضمان حقي، وأرجو ألا تغضبوا من طلبي .

رد أبو كرم عليه :

ـ من خيرة الناس من سيسكن منزلك لا تقلق.

الأستاذة سعاد مدرسة في الجامعة وطفلها مؤدب كما ترى وستكون راضياً بلا شك.

سئمت الحوار الذي دار بينهما وطال أكثر من اللازم وكأنني أريد شراء هذه الشقة وليس استئجارها. فتحت الأبواب والنوافذ التي تطل على الحي وحديقة خلفية تشرح النفس وهذا أكثر ما أعجبني بها أنها مهواة جيداً، حيث أنني أختنق من الأماكن المغلقة فهي تبث الضيق في نفسي. اتفقنا على تلك التفاصيل المتعارف عليها، وتواعدنا باكراً لكتابة العقد، دفع له أبو كرم عربوناً كي لا يقلب، وجرت الأمور على خير ما يرام.

بعد ظهيرة يوم الأحد وبعد عودتنا من القصر العدلي وكتابة العقد، سلمنا صاحب الشقة المفتاح. حزمنا حقائبنا وتهيأنا للذهاب، شعرت بالحزن سكن وجه أبي كرم، فحاولت شكره والتخفيف عنه فهو رجل طيب في زمن الطيبة باتت نادرة.

- لن أنسى فضلك ما حييت، أنت رجل شهم، أرجوك تتفضل بزيارتنا كلما سنحت لك الفرصة.

حمل الوليد وقبله ولم ينبس بكلمة، دارى خلف صمته حزن الفراق، لا ألومه هو أيضاً وحيد، هاجرت أسرته إلى الخارج وظل وحيداً هنا، رفض مغادرة الشام، كرر جملته التي لا تفارق لسانه - ما أترك الشام إلا إلى الدير، عندي أمل بفك الحصار عنها ونرجع، الدير جرح القلب الذي لا يطيب.

يقولها بألم وغصة تعتصر قلبه ككل سوري يحلم بالعودة إلى مسقط قلبه، ومرابع طفولته وشبابه، يظل الأمل هو الصديق الوفي الذي لا يتركنا في أسوأ الظروف.

دمشق...

يسحرني شالها الذهبي قبل المغيب، يحتضن آخر خيوط الشمس ويسرق منها قبساً ليضيء قنديل الليل، يتطاير بين الوجود واللا وجود، يبعثرها، يتقاسمها مع المساء، لليل وقار المأتم وخشوعها رغم صخبه يعتصر من القلوب خمر الوجع، يثمل الساهر بسحرها لدنو الفجر من الشفق..

مدينة لو تسكنها يوماً تقيم فيك دهراً، تتناقلني على راحاتها كأم تخفف الوجع، نحن الخارجين من الخيبات، نحن الساكنين لفضاء الأمل، نعود بعد كل رحيل إليك، للياسمين عبق أصيل، يمتلئ قلبي بعطرها .. أحتفظ به لحين موعدنا الآخر..

ستذكرني...

بيننا بردى وقاسيون، وجعبة من الذكريات، بيننا ذاك الهوى العتيق كياسمينها، انفض من عينيك رماد الحزن، ارقصي مع فينوس رقصة النصر، انثري شالك الذهبي على مساحات الفرح، لا يليق بك الحزن، تتخلل مسامات الجسد كقطرة ندى تستريح بعد رحيل طويل، تبلسم الجرح النازف بفعل السنين، وتروي تلك القلوب العطشى، مذ رحيلي الأول وأنا أقتات على الأمل، مازال الأمل ذاك الحبل السري الذي يربطني بالحياة، ما هرم الشوق في قلبي إليك، يزداد صباً .. معك يا شام أطاول سحاب المجد والعلا...

لا أريد لكلماتي أن تنفد، ما لم ينفد وجعي الذي ما زال نازفاً، ربما الإطالة كحال لسان مدينتي بلا جدوى، ماذا أقول أو ماذا أكتب، وهل تفيد حروفي بترميم ما تمزق، وبناء ما قد هدم؟ وهل تعيد تلك العيون المهاجرة؟ لا أتخيل مشهد العودة ولو عدنا، من يعيد ماضينا وأحبتنا ؟ ما يراود أعماقي هو الجزع، أنا جزعة من تذكر قوافل الإياب، لا تسعفني الكلمات للإسهاب والوصف، هنا يصمت قلمي ولا أتمنى أن أتذوق مرارة المشهد، أكتفي بخيالات مجدك يا نور عينيّ، لا أريد أن أصدق أن الحروب شوهتك، وغيرت ملامح الجمال الفاتن فيك، أريد أن أحتفظ بصورة الشباب والفتنة الجذابة التي تجعلنا نقع في شرك الحب لك من النظرة الأولى، سامحيني إذا رفض قلبي أن يكون شاهداً على موتك الألف، فأنت قتلت ألف مرة من دون سبب ولا ذنب.

أشتاقك، وأشتاق أيامي على مرابع جمالك، ولكن أخشى ألا أحتمل عزائي بك، مهما تعددت الأعلام والألوان، أنت تعلمين ما أشتاق يا مدينتي، وأنا علمي رسمته يداي الصغيرتان عندما تعلمت كيف تخط أولى خطوط الحب ورسم القلوب على خارطتك، فظل قلبي معلقاً في سمائك مهما ابتعدت عنك.

"القلب قد أضناه عشق الجمال
والصدر قد ضاق بما يقال
يا رب، هل يرضيك هذا الظمأ
والماء ينساب أمامي زلال([11])

---

11. عمر الخيام.

وأنا أقول يا رب، هل يرضيك هذا الظمأ والفرات أمامي زلال؟ ما ارتويت بعد فراقك، هذه الحقيقة يا ظمأ روحي الذي طال.

خضعت رهام لخطة علاجية عند طبيب لا أريد أن أقول شاطر، بل هو إنساني، وقليل من أطباء عصرنا هذا يتمتعون بهذه الصفة، ولكن وللّه الحمد قد وفقنا بهذا الطبيب الإنساني الذي احتواها وبذل ما سخر اللّه له من العلم ليخرج روحها من الظلام إلى النور، من سجن إلى فضاء، من حقها أن تعيش ما قدر اللّه لها من حياة، أقول في نفسي: في وجود هؤلاء الناس نشعر أن الدنيا ما زالت بخير. ليس ذلك التحسن الملموس ولكنه إعجاز مقارنة بحالتها السابقة . أصبح وجهها مشرقاً بالحياة، تتذكر أنها جائعة، تحتاج إلى حمام دافئ، تحتاج أن تنام وهذه الأمور هامة جداً في حياتها، كل هذه التفاصيل كنت أنا من يقدرها، أما اليوم فحبيبتي رهام تستطيع تقديرها بنفسها والحمد للّه.

نحن الثلاثة مالت حالنا للاستقرار والثبات وتلاشى الخوف وعدم الأمان من أعماقنا شيئاً فشيئاً، باتت بينا وبين الأمكنة الجديدة علاقة ودية لا نشعر بوجود خلل، هناك انسجام روحي يوصلنا للأمان والاستقرار.

أصبح الليل أكثر لطفاً بنا والصباح هو بشارة يوم هادئ، تأخذ الأحداث وترتيبات الحياة مكانها الطبيعي، وبدأ ذلك الحمل الثقيل على ظهري يخف بعض الشيء وحالة القلق التي تجتاحني دائماً، بدأت تتلاشى هي بدورها، هكذا هي الحياة تعطيك حتى تغمرك بالعطاء والسعادة لتعود وتسرق منك بالتدريج وربما دفعة

واحدة ما أعطتك ثم تمنحك ما سرقته على دفعات، ربما هي إرادة الخالق لنشعر بقيمة النعم التي سخرها لنا في هذه الحياة وعلى هذه الأرض.

يعلم الله بحجم الرضا في داخلي، فاق حجم الحزن والفقد وإن كانت ذاكرتي نشيطة في إعادة تكرار صور الماضي إلا أن قلوبنا اعتادت سكن من فيها ولا يغادر لأي سبب..

أتوسلها فقط أن تظل مسالمة لا تعرض صوراً تمزق سكينتي التي أويت إليها واعتدتها كما اعتادتني، أخشى نكسة الذاكرة، وفي لحظات أحتاج على ما حدث.

يهاتفني أحمد بعد انقطاع دام أكثر من شهر، أخذتني مشاغل الحياة وتتابع الأحداث وسرعتها في مدينتي، يكتب إلي يبشرني بكل ما هو جديد وأنا أستقبل كل ما يحدث ببرود غريب وكأن الأمر لا يعنيني أبداً، لا تزهر نفسي بأي خبر، ربما لأن الذين رحلوا لن يحتفلوا معنا بأي نصر، ما فائدة أن ننتصر ولا نجد من يشاركنا انتصاراتنا، أو لربما أن العواطف بدأت تتجمد بعد احتراقها واستشاطت كل الأعماق بها، خروجنا من عالم الذهول إلى عالم الواقع أمر ليس سهلاً، ما أحتاجه في أعماقي الآن هو الهدوء فقط، تعبت أعماقي من الصراعات والهروب، أكتفي اليوم بجوار بردى وياسمين الشام، وأكتفي بأني أسست أسرة مسؤولة عنها ومسؤولة عني. أنا أبني هنا حياة لإنسانين هما كل ما لي من أهل، وكل ما لي من أحباب، وهذا أظنه كاف.

ـ مساء الخير .

- أهلاً، مساء النور أحمد.
- لماذا كل هذه القطيعة؟.
- ليست قطيعة، لكنني كنت مشغولة بعض الوقت فكما تعلم
يقاطعني قائلاً:
- خمس دقائق من وقتك لا أكثر، تطمئنينني فيها عنك، لم ألح عليك بلقاء أو ما شابه فأنت تعلمين حجم قلقي وشوقي لك.
- لكننا نتواصل على النت، وتمدني دائماً بكل ما لديك وهذا كاف لنعلم كلينا أننا بخير.
- صحيح، ولكن قلبي لا يكتفي بهذا..
يسود الصمت فأقطعه وأرد عليه :
- وما شأني بقلبك؟ أعلم أنني جرحته وكنت أتقصد هذا .
- سعاد. . من كل قلبك هذا الكلام ؟...
- وما الفائدة لو كان من خارج قلبي؟ أنت تعلم تماماً ما في قلبي وأعلم ما في قلبك، وهذا لا شأن له بواقعنا، فكل واحد منا له حياته وظروفه الخاصة.
يقاطعني :
- لا تكملي. يقول ذلك وكأنه يخشى أن أنهي ما بيننا بقطع آخر خيط أمل هو متعلق به، وهو يعلم قسوة طبعي حيال الأمر، أقرأ أفكاره عن بعد وأسمع خفقان قلبه يضطرب من تقطع أنفاسه .لم أكن شجاعة أكثر منه ولكن هذا قدر محتوم لا أستطيع تبديله أبداً.
- أحتاج أن نتحدث.

ـ ها نحن نتحدث.
ـ لا .. أريد رؤيتك، ولا أقبل بأي عذر.
أصمت وأحشائي بدأت تتمزق، وأنا أتهرب من الوقوع بهذه الاضطرابات، بل وأخافها جداً، لا طاقة لي على مكابدة مشاعر تتغذى على أحشائي من دون رحمة بي.
ـ اعتبريه رجاء، لا بد أن أقنعك، لا بد أن نمنح حبنا فرصة أخرى للحياة، لا أقبل بقرار الوأد الفردي. لا يحق لك أن تتخذي عني كل مرة قراراً بقتلي، أنا لي الحق في أن أخفف عقوبة الموت إلى عقوبة أخف، قتلني حبنا مرة ولا أحتمل تكرار ما حدث.
ـ لا أعتقد أن اللقاء قد يغير شيئاً، دائماً أقول لك حياتي ليست ملكاً لي، أنا لا أمتلك أي خيار.
ـ نلتقي وأنا سأبذل ما بوسعي كي أجعلك تغيرين رأيك، صدقيني يا سعاد الحياة ستكون أجمل بوجودنا معاً، أنت وطني الذي لم أغادره ولم يغادرني. هل يناسبك غداً مساءً ؟
ـ لا أعتقد. لا أستطيع ترك البيت في هذا الوقت.
ـ لا تتهربي أرجوك .
ـ يوم الأحد العاشرة صباحاً في المكان نفسه. هذا أنسب وقت عندي يكون الوليد في المدرسة ورهام تنام بعد تناول الفطور وأخذ الدواء.
ـ جيد، ولكن عديني أن تفكري جيداً بوضعنا ولا تتسرعي وتطلقي أحكاماً وقراراً نندم عليه طوال عمرنا.
ـ تصبح على خير.

- تصبحين على خير.
حاولت اختصار الحديث ما أمكن واختزال الأمل الذي يسكنه، وأخافني اندفاعه نحوي وتمسكه بي، لا يعلم أني امرأة معطوبة لا أصلح للحب، وهذه حقيقة نفسي.
أن أحبك شيء وأن أمارس الحب معك شيء مختلف، فمشاعرنا لا سلطان لنا عليها وخيارات القلوب لا تتبدل، أما خيارات الحياة فنحن نتحكم بها، ونرفض كل النداءات الداخلية، لا أريد أن أعتذر منك فعذري لن ينفعك بشيء، أريد أن أعتذر من قلبي ومن قلبك، من ضعفي الذي يهزمني أمام الـ" نعم" أخشاها جداً فهي تمزقني لو تمكنت مني والـ .. لا .. أرحم بكثير من تغيير تاريخ حياتك وسير كونك، لست امرأة من لا تجيد العزف على أوتار القلب، أنا لا أمتلك الحس بالوتر وفقدت السمع، اتركني للخواء بهدوء، لا تحرك البحر المالح في أعماقي، فأنا بإرادتي في بحري، وقد آن أن أكف تلك الشواطئ المترامية وآذن للنوارس بالرحيل، وأرفع المرساة لترحل بواخرك بعيداً من حيث أتيت، فأنا .. يا أنا .. امرأة خارج الحياة.
دائماً يصل قبلي. يجلس على الطاولة ذاتها في تلك الزاوية على اليمين يحتسي القهوة ويدخن بقلق، عيناه ترقب المدخل بشغف، أشعر بنبضات قلبه تبعثر ضلوع صدره وتجمعها من جديد، وأنا مازلت أقترب وأقترب.

أسير على نبض قلبي بوجع وأبتلع كل تلك الكلمات التي يجب أن تقال، ما نفع ما تقوله وهو مؤلم أكثر مما لو بقي من دون أن يلفظ، سامحني يا وجعي، يا جمرة الروح التي تحرقك وتحترق.
لا أعلم كم عانيت وأنا أبحث عنك في متاهات زمني، رسمتك عالماً من السحر بألوان غربتي عنك واحتياجي إليك، عطشى بين منابع الشوق والحنين أشتاق لماء ودك...
وأنت تسكن بيت الغيم الراحل بعيداً عن عيني، تطارد فلول الرياح ولا تمسك بها وتنهمر غيثاً من كبرياء لا يمر بأرض أوجاعي وإن أصابها الجفاف، كيف أبني للشوق جسراً من الصبر ليعبر المسافات ويجنبني ناراً أوقدها ولم تنطفئ...
وكيف أصنع من الحنين أراجيح السلوى من حبال اللا وعي، بما يدور في عالم ليس هو عالمي؟ أنت لست تلك الواحة في صحراء العابرين عطشاً، أنت كل فردوس نذر لأرض الحب والوجد.
أنت لست تلك الفسحة السماوية من ملكوت السماء، أنت سمائي كلها وهواي يحملني بجناحي عاشق يكتشف أطرافها وكل ما نحمله من أسرار الشوق والحب، أنا لا أحبك بالمعنى الذي استهلكه عامة البشر، أنا أحيا بك، يكفي أن تكون حياً لأحيا بك وأحيا لأجلك، فالحب ليس حكماً وصال.

- صباح الخير
- صباح الخير .. تأخرت!.

تثير شهيتي للضحك لهفتك علي، جميلة ومذهلة مثلك. أكتم انفعالاتي نحوك، فأنا بحضرة الغياب يا أيها الملك . رددت ذلك بيني وبيني ثم قلت :

ـ تعلم المواصلات .. أردت أن أقول لك أنا لم أتأخر ولكن شدة الشوق بداخلك حولت الثواني إلى ساعات وهذا ليس ذنبي، بل ذنب الزمن الذي يبدو في حالات الانتظار طويلاً وفي الحب أسرع من لمح البصر أليس كذلك ؟ .. هل توافقني الرأي ؟

ـ وكيف لا أوافق على ما تقولين، وأنتِ تصفين حالي بأدق الصور؟ طمئنيني عنك ؟ كيف الحال ؟.

ـ بخير والحمد لله كما تراني، ما زلت قادرة على مواصلة الحياة وهذا أفضل حال بالنسبة لأمثالنا .

ـ لماذا كل هذا التشاؤم؟.

ـ ليس تشاؤماً، بل هو واقع حالنا.

ـ لا تعبريني سرابا.

ـ لا تعبرني أملا .

ـ أريد أن أصمت لأعقد هدنة مع موعد آخر، فأنت تفرضين علي قيوداً لا طاقة لي على تحملها .

ـ لك أن أعتقك مني وترتاح للأبد.

ـ لا .. قيودك أرحم من هذا الخيار، لا أريد أن أعتق، أنا مرتاح داخل سجنك لي، وقلبك أرحم من العالم كله، هو أماني وراحتي، وهو بيتي الذي يؤويني في الضياع، قهرتني الظروف مرة

ولن أسمح بأن أعيد الغلطة مرة أخرى، سأتمسك بك بأسناني ويدي، لن أسمح للغياب أن يسرقك مني من جديد.

ـ كونت أسرة جميلة وعندك ثلاثة أطفال. أكيد هم يشبهونك. وعندك زوجة تنتظرك كل مساء .ماذا تريد من الدنيا أكثر من ذلك؟ هذا أجمل شيء، أن تكون لك أسرة صغيرة تكون مسؤولاً عنها وتقدم لها الرعاية والاهتمام لتراها تنمو وتكبر وتتقدم في الحياة، لترى أطفالك متفوقين يسلكون ذات الطريق الذي سلكته ويساهمون في بناء الوطن.

ـ اتركينا من هذه المثاليات، قدمنا للأوطان أكثر ما نطيق ألا يكفي؟ .

اتركينا من هذه المثاليات، لقد مات كل شيء جميل فينا ليحيا الوطن وهو معافى ونحن المرضى يا سعاد، أنا مريض بك وأنت دائي ودوائي فلا تحرمينا من أن نجتمع ونكون أسرة نشترك أنا وأنت في تربيتها وزرع كل المبادئ التي اقتدينا بها، ليثمر هذا الحب في كل فصول العمر.

لا تقنعيني أنك لم تعودي تحبينني كما السابق، لا أصدق لأن عينيك تشي بعكس هذا، وإن حاولت إخفاء تلك المشاعر فأنا أخبرها تماماً. قلبي مؤمن بهما كإيماني بوجودك الآن أمامي، أنت لست أمامي . أنت دائماً في داخلي، وأعماقي، بين أضلعي، في دمي، وفي أنفاسي.

حاولت الهروب بعيني عنه ثم بروحي ولم أستطع، كلماته تشربتها روحي الموجوعة على مهل. نوع من المخدر الذي فتك بكل أعضائي

واستسلمت له، أردت أن أنهض بكلي لكني فقدت ذلك الكل داخل كلماته، سافرت حواسي مع نبرة صوته، مع صدق إحساسه، وبدأت أحاول حبس الـ" نعم "بكل ما أوتيت من صلابة وجلد وكانت محاولاتي تنهزم مع سطوة انفعاله، أشيح بنظري عنه، عيناه نقطة ضعفي وسرهما، ولا أريد لسري أن يفضح، أريد أن أهرب منهما ومني ومن كل ما هو مؤلم ولكن ما خيار الميت إلا أن يطلب الموت أكثر بطرق متعددة وبزمن واحد؟...

يتابع بإصرار من دون أن يمنحني حق الرد:

امنحيني الحق أن أكون سندك في هذا الزمن القاسي، وأن أكفر عن ذنب الغياب، أريد أن أعوض الوليد عن كل حنان يفتقده، وأعدك يا سعاد، أن أبذل ما بوسعي لأكون له الأب الذي تتمنين.

يقاطعنا النادل يسأل إذا كنا سنطلب شيئاً. يسألني بعينيه التي تغرقني كلما جاءت بعيني. أتوه به، يقول كمن ينتظر جوابي، قهوتنا كالعادة، يسأل النادل:

ـ سادة مدام ؟

يجيبه عني:

ـ نعم.

يسود بيننا صمت طويل وهو يلتهم تفاصيلي المرتبكة وأنا أبحث عن مخرج من مأزق الحب المؤبد، لا حيلة عندي، لا جواب. لا بداية لي ولا نهاية، ماذا أمنحك غير الغياب، غير العذاب، غير المزيد من الصد؟ هل أطلب منك أن تسامحني؟ هل أهرب كما اعتدت الهروب دائماً منك؟ لا فائدة، فهروبي يأخذني دوماً إليك، وما

الزمان إلا ذاك الوهم، وافترقنا يا فؤادي، تلك السنين كانت كذبة، كذبة فقط لا أكثر، أنت هنا داخل اشتعالاتي، وداخل ازدحامات الحياة، أنت أماني في ليل الضياع، ومرفئي عندما تعلو بي أمواج الحنين والاشتياق، من قال أن الغائب عن العين غائب عن القلب؟.

فكم من حاضر لا يستطاب به؟.

وكم من غائب عن العيون حبيب؟.

أنا في غيابك عمياء، لا أرى في الوجوه غير وجهك، وهنا العمى انتقائي الطبع، هل تعلم كم مرة نظرت في عينك ؟

ألا ترى تلك الغابات المتشابكة في داخلي، نمت في غيابك ونبتت أشجار الحنين؟ كانت بذور الشوق، فارتوت من فيض ما ذرفت عيني عليك، ورغم أن قلبي يفيض بك وأشتاقك إلا أن طبعي يهوى الرحيل، ليس لأنك لا تستحق بقائي بل لأن البقاء يقتل كل جميل بيننا، فاعذرني يا جمرة الروح إذا كان الرحيل قراري . كنت أهجس في تلك الكلمات ومن دون شعور مني وجدتني أردد: "الإنسان يولد ويعيش سجين نفسه، وليس أشق على النفس مثل البحث عن النفس، فإذا انتصرت في هذه المعركة انتصرت في كل المعارك وذابت روحك في الله". ([12])

انتهت

12. إبراهيم الكوني / البئر